المطر الأسود ...

وأقاصيص أخرى

أ.د. عماد الدين خليل

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

أكثر من نصف هذه المجموعة القصصية حاولت فيها أن أتجاوز الواقع بمفهوميه اللغوي والاصطلاحي – إلى ما وراءه ... إلى ما وراء الحياة المعاصرة بآليتها الصارمة، بروتينها القاسي، بتسطحها، بغياب أو تضاؤل بعدها الروحي الذي اعتدناه أيام زمان ...

إنها بشكل من الأشكال إدانة لهذه الحياة التي أخذت تفقد شيئا فشيئا عمقها الحقيقي على مستوى الخبرات الشخصية، أو العلاقة بين الإنسان والأخر ... تصير مجرد حركة في الطول والعرض لا تنطوي على أي عمق على الإطلاق.

لكأننا غدونا والحالة هذه ممثلين ... مجرد ممثلين يؤدون أدوارهم على شاشة الزمن ثم يرحلون دون أن يكونوا هم أنفسهم قد عايشوا أدوارهم التي كتب عليهم أداؤها ...

إنها بشكل من الأشكال نوع من الهروب والتطهر من المنظومة القيمية لهذه الحياة الجديدة التي أصبحت بمثابة ركض متواصل لتحقيق كسب ما ، منفعة عابرة ، دينار أكثر ... ركض متواصل حتى أصبحت تتقطع الأنفاس وتدس أنوف الراكضين على غير هدى في التراب ...

الناس كلهم يشتكون من هذا الذي يعيشونه، يرونه بأم أعينهم ، يتعاملون معه، ولكنهم يجدون أنفسهم منساقين إلى ممارسة طقوسه التي لا ترحم ... كأنهم قد كتب عليهم الاعتقال في شبكة من الممارسات القاسية التي ليس من الفكاك منها من سبيل ...

ومن يدري، فلعل الفن على إطلاقه، وفن القصة والرواية والمسرحية، هي النوافذ التي تعد ، ولو بشيء يسير من خلاص الإنسان من محنته، وتنقله بعيداً بعيداً عن واقعه الذي أصبح باعتراف الجميع لا يطاق ...

ولكن أي هروب هذا وأي تطهر!!

أبداً ... إنه هروب من واقع ذي مواصفات معينة، إلى واقع آخر ذي فضاء واسع ... وسماء كبيرة حيث تنفتح البوابات على الدنيا السعيدة بخفقانها الروحي، بمتعها البريئة ... بفرحها ودهشتها ... بتوقها للمجهول ... بعلاقاتها المترعة بالألفة والمحبة والتعاطف بين الإنسان وأخيه الإنسان ...

فهي إذن بهذا المعنى ، تندرج في سياق الواقعية ... الواقعية الإسلامية تحديدا ، لأنها هي وحدها القديرة على كسر جدران الواقع المنظور الملموس ... الواقع الثقيل المبهظ ... واغنائه بمزيد من الخبرات التي تعطيه طعمه الحقيقي ومذاقه المتميز ...

فمن الرؤى والأحلام التي تعكس بدرجة أو أخرى، بعدا واقعيا مؤكدا ... ومن أين يبدأ التفكير التي تتعامل مع ما وراء المنظور في عمل القلب والدماغ ... ومن التوق للقاء الراحلين الذين تفرقت بهم أسباب الحياة والموت ... إلى العثور على الشيخ ... هذا الكائن الفريد في

تجانس همومه ومكوناته، حيث يلتقي العقل بالروح بالجسد في عناق مثير ينطوي على الإجابة عن كل ما يهم الإنسان المأزوم في لحظاتنا الراهنة ... إلى لعبة الفنجان التي تشذّ عن المألوف وتمضي بعيدا باتجاه العالم الغرائبي ... إلى لقطات قصصية من زمن الطفولة السعيد ... إلى الكلمة المضيئة التي تشعل قناديلها الدنيا في سمائنا ... إلى (المستحيل) حيث يتعلق الإنسان وحيدا على سطح لوح خشبي صغير وسط محيط هائل في امتداده، تضيع فيه ملامح الزمان والمكان، وينتظر دون جدوى لحظة الخلاص فلا تجيء إلا بإرادة الله ... إلى الصعود إلى (الأعراف) في الحياة الأخرى للإطلالة على مصائر الطواغيت والأرباب ... إلى (المنجل السحري) الذي يقطف رؤوس الملعونين من حكام العالم وطواغيته ... إلى الزحف الرهيب للجراد والحشرات والقوارض والعقارب والحيات ... إلى التمرد على الآلية التي مسخت الحياة وأحكمت قبضتها على رقاب الناس ... إلى (الألفة الميتافيزيقية) حيث الهروب من روتين الحياة القاسي مما يسمى الفيزيقا إلى الميتافيزيقا ... الذهاب بعيدا عن المعادلة القاسية التي تمسك بخناق الإنسان ... إلى المطر الأسود الذي ظل يتساقط بعنف على فضاء المدينة لمدى سنوات ثلاث ... وأغرقها بالفيضان الرهيب ... إلى صرخة عبد القادر الجيلاني وهو يحمل على ظهره شوالا مترعا بكسر الخبز اليابس واللحم المقدد والسويق ويجتاز التلال والجبال والهضاب والوديان ... صارخا (أود لو أن الدنيا كلها بيدي فأطعمها الجياع) ...

هذه وغيرها من أقاصيص المجموعة تظل تنطوي على واقعيتها المؤكدة، رغم أنها تسعى إلى تجاوزها إلى ما وراء الملموس والمنظور والمحسوس ...

ففي المنظور الإسلامي يبدو أن كل خبرة في هذه الحياة إنما هي في صميمها خبرة واقعية ... ما دام أنها تنطلق وتتشكل داخل الممارسة الإنسانية، سواء كانت هذه الممارسة في مدى الحس أم بعيدة عنه ... موغلة في شرايين الحياة التي تظل تتدفق بالمزيد من التجارب والخبرات، لهذا الكائن الغريب الذي أراد له الله سبحانه وتعالى أن يكون سيدا على العالمين !!

ومن الله وحده التوفيق والسداد

الموصل في ١/٧/٢٠١٧م

المطر الأسود

منذ أكثر من ثلاث سنوات والغيوم الحالكة السوداء تغطي فضاء المدينة من أقصاها حتى أقصاها ... منذ أكثر من سنوات ثلاث والسحب المعتمة تتحرك في السماء يعقب بعضها بعضا دون أن تترك لحظات لثغرة ولو ضيقة قد يتسرب منها ضوء الشمس ... منذ أكثر من ثلاث سنوات والناس في مدينتي يحسون وسط هذه الظلمة التي ، عصفت بهم باكتئاب خانق، وبرغبة عاتية في أن يسترجعوا شيئا من ذكرياتهم مع الشمس ... ولكن أنى لهم ذلك والغيوم السوداء تزداد عتمة واظلاما ؟!

إحساس حاد بالاختناق أمسك بقبضته الجميع، فدفعهم إلى أن يجأروا إلى الله بأن يزيل عنهم هذه الغمة ... أن يخفف ولو شيئا من سوادها العميق ... أن يفتح لهم كوى يستردون بواسطتها شيئا من الفتهم مع نور الشمس الذي يبدو أنه قد اختفى إلى الأبد !!

منذ أكثر من ثلاث سنوات وصوت الرياح المزمجرة يضرب بقسوة بالغة آفاق المدينة حيث راحت تنفجر بين حين وآخر ، وبدوي هائل ، الصواعق القاسية التي لم يشهد السكان لها مثيلا في حياتهم ، ومع الصواعق المزمجرة تلك ومضات من البرق تضرب كالسياط الحادة صفحات السماء ، ثم ما تلبث أن تنطفئ على حين غفلة، لكي تترك المدينة وأحياءها في الظلام الدامس العميق ... الخوف ... الرعب ... الرغبة العاتية في الهروب إلى حيث تغيب الظلمة وينفتح الفضاء ثانية على ضوء الشمس ... على النور ... ولكن لا جدوى !!

لكأنه نوع من الحصار الأسطوري فرض على هذه المدينة ، ربما عقابا لها عما صنعته أيديها، وعما مارسه أبناؤها عبر السنوات الطويلة من خطايا وآثام ، حتى لقد ظن البعض أن العتمة هي خاتمة المطاف وأنه لا خلاص ...

منذ أكثر من سنوات ثلاث واليأس القاتل يمسك برقاب الناس، يكتم أنفاسهم، ويسوقهم إلى مزيد من العتمة وكأنها قدرهم الذي لا فكاك لهم من أسره !!

عطلت الدوائر ... أغلقت الأسواق ... شلت المدارس ... توقفت حركة السيارات ... اختفى المارة من الشوارع والطرقات ، وحل محل النشاط البشري المعتاد صمت رهيب مضى لكي يلف المدينة من أقصاها إلى أقصاها ...

هرع الناس إلى بيوتهم ، وأغلقوا عليهم الأبواب ، وراحوا بين الحين والحين يطلون بوجل من نوافذهم المقفلة على السماء علهم يلتقطون ثمة إشارة إلى تفرق السحب ، وانفتاح السماء ، وتدفق نور الشمس الذي تعرض للنسيان ...

الأطفال يضجون بالبكاء ... تمسك بخناقهم دوامة الخوف من الظلام ... إذ سرعان ما انطفأت الأضواء ... أصابها عطب شامل فشلها عن الحركة ... النساء تذرف أعينهن بالدموع

وقد التزمن الصمت إذ لم يجدن في أية محاولة يبذلنها جدوى إزاء هذا الويل النازل من السماء ...

الرجال يروحون في أفنية دورهم ويجيئون وهم يجأرون الله أن يخرجهم من هذه المحنة التي أحاقت بهم ، ولا أمل في الخروج منها إلى الضوء الذي يبدو أنه قد اختفى إلى الأبد ...

لم يعد احد يشتهي أن يأكل أو يشرب ، وقد أقفلت شهيتهم للطعام والشراب ... والأطفال لم يعودوا إلى لعبهم ومشاجراتهم المعهودة ، والنساء التزمن الصمت وكففن عن الحديث ... الكل نسي تقاليده التي عاشها عشرات السنين ، والكل لم يعد له من هم، وهو يرفع عينيه إلى السماء سوى أن يزيل الله هذه المحنة ويعيدهم إلى ما اعتادوه من حياة يغمرها نور الشمس ، وزرقة السماء الصافية ... والنور ...

أصبحت الدور بصمتها المطبق ذاك كالقبور ... يخيم عليها السكون ... لا أحد يتحرك فيها ... لا أحد يتحدث فيها ... ولا أحد يطرق أبوابها من المعارف والأقرباء والجيران ... الكل دفن نفسه في كثافة العتمة وكأنه ينتظر لحظة النفخ في الصور ...

وعلى حين غفلة ، دوى رعد رهيب في السماء ، وضربت الأفق سياط نارية من البرق ... ثم ما لبثت السماء أن أخرجت زئيرا حادا كأنه آلاف الأسود تصرخ دفعة واحدة ، ثم ما لبث المطر الأسود أن راح ينزل من السماء بلون الفحم والقار ... ينزل كأفواه القرب ... النقطة الواحدة يمكن لها أن تملأ كأسا أو إبريقا ... راح ينزل بقسوة بالغة لم يسمع بمثلها يوما ، أو يرى مثلها يوما ...

وراح الناس يتصايحون وهم يرتجون هلعا: المطر الأسود ... المطر الأسود ... المطر الأسود ... أي قار هذا الذي ينصب من السماء؟ أي سخام يتنزل من فوق؟ أي فحم هذا الذي امتزجت به قطرات الماء فأصبحت سوداء كظلمات الليل ؟

بعض الناس أملوا ، من وراء الرعب والخوف ، أن تكون هذه هي خاتمة مطافهم من المحنة السوداء ، إن هي إلا دقائق أو ساعات، وتغسل السماء ، بعد أن تكون قد رمت أقدارها السوداء وترجع إليها زرقتها الغائبة ، ونورها الضائع ... كانوا يؤملون ، على الأقل من أجل أن يتشبثوا بالحياة في ضوء أمل قد يكون باهتا ، إلا أنه قد يأتي على أية حال !!

آخرون أمسك بهم اليأس من رقابهم ، وظنوا أن المطر الأسود هذا هو نذير شؤم وأنه قد يستمر على التساقط أسابيع وأشهرا طوالا وربما سنوات، كما الغيوم السوداء ، وأنه لن يكف عن التساقط حتى يغرق المدينة بمن فيها ، وظلوا يديرون هاجسهم المخيف هذا في رؤوسهم حتى أصبح بمثابة الحقيقة الواقعة ، وأن يوم الهول الأخير لا محالة ، نازل بهم جميعا ...

النساء كببن رؤوسهن باتجاه الأرض ، في محاولة منهن للهروب من منظر المطر الأسود المتدفق من السماء كأفواه القرب ...

شوارع المدينة أصبحت أنهارا ... لكأن بركانا هائلا ضرب باطن الأرض وفجره بالقار والأوحال ... والتي راحت ترتفع شيئا فشيئا حتى جاوزت حافات الأرصفة، وامتطتها في طريقها إلى درج الدور ... وراحت تصعد الدرج لكي تطل على الحدائق والأفنية الخارجية فتغطيها بالزفت والقطران ، ثم تمضي في طريقها مصعدة صوب صالات الدور وغرفها لكي ما تلبث أن تغطيها ... بينما وقف الرجال لا يدرون ما يفعلون ازاء هذا الغضب النازل من السماء والمتفجر من الأرض ... وأنى لهم أن يفعلوا شيئا هو فوق طاقتهم بكثير ، ومن ثم راحوا يحدقون كالبلهاء في الماء دون أن يحركوا يدا لدفعه عن الصعود إلى أعلى ...

ها هو ذا ماء المطر الأسود يكتسح غرفهم في الأدوار السفلى بما فيها من حاجات، ثم يممّ وجهه صوب الصعود إلى الطوابق العليا التي هرع إليها الأهلون علّهم ينقذون أنفسهم من الحصار الرهيب ... فإذا بهم يفاجئون بصعود المياه السوداء قبلهم إلى هناك وإغراق ما تبقى من حاجاتهم وموجوداتهم ...

يا الله ... يا الله ... يا الله ... أوقف هذا البلاء النازل قبل أن يفترسنا نحن الآخرين ... يا الله ... يا الله ... يا الله ... كف هذا المطر الأسود عن السقوط قبل أن يجرفنا معه إلى القرار ... يا الله ... يا الله ... يا الله ... قل تكلمه كن فيكون، قبل أن يقع المحذور !!

وعلى حين غفلة ، يكف المطر الأسود عن السقوط، وتتراجع المياه المترعة بالسخام شيئا فشيئا ... وتتكشف السماء إذ تشققت السحب ، عن نور الشمس ، وروعة زرقتها الغائبة منذ ملايين السنين ...

ها هي ذي الحياة تنبعث في المدينة التي نامت في أحظان الظلمة ، والسحب القاتمة ، والمطر الأسود ... والأرض المتفجرة عن القار ... تبعث من جديد ...

ويستبشر الناس خيرا ... الرجال والنساء والأطفال ، متوجهين بالشكر والامتنان لله الذي استجاب لدعائهم ، وكفّ المطر الأسود، وأعاد إليهم نور الشمس ، وصفاء الأفق ، وزرقة السماء ...

يا الله كم أنت رحيم بعبادك ...

يا الله كم أنت قدير على أن تقول للظواهر والأشياء كوني فتكون ...

جل جلالك يا الله ...

جل جلالك ...

أود لو أن الدنيا كلها بيدي فأطعمها الجياع !!

أوغلت في المجاهيل ... ذرعت الأرض طولا وعرضا ... صعدت التلال والجبال واجتزت الهضاب والوديان ، وأنت تحمل على ظهرك شوالا مترعا بكسر الخبز اليابس، واللحم المقدد ، والسويق ... صرخت بأقصى ما يستطيعه الإنسان: أين الجائعون ؟ أين الحفاة أين العراة ؟ أين الذين تيبست أجسادهم من الجوع والعطش ؟ أين الذين أرغموا على الصيام الأيام الطوال دون أن تمس أفواههم لقمة واحدة ؟

وإذ لم يرد عليك أحد أعدت الصرخة مرة أخرى: أود لو أن الدنيا كلها بيدي فأطعمها الجياع ... ثم تعود فتدمدم مع نفسك: ولكن لا بد مما ليس منه بد، وما لم يدرك كله لا يترك جله ... وربّ لقيمات من الخبز اليابس واللحم المقدد يقمن صلب الإنسان ويمكنه من مواصلة الحياة ... ولئن يحيي بك الله رجلا واحدا خير لك من الدنيا وما فيها ...

يا عبد القادر امض ... ولا يهوّلنك الصمت المطبق على البراري والأصقاع ... لا يحزنك غياب الجوعى والمأزومين ، فهم موجودون على أية حال ... ولسوف تعثر عليهم ... يقينا سوف تعثر عليهم يا عبد القادر ...

ومضيت لا تلوي على شيء، محملا بأحزان الدنيا ... مترعا بثقوبها السوداء ... مشبعا حتى العظم بمظالمها وتعاساتها وبؤسها ... منكسرا لما عانيته في جنباتها من تلك المفارقة المحزنة حتى النخاع: المترفون الذين يرمون بقايا طعامهم وأكداسها في المزابل والقمامات ، وحشود الجوعى الذين لا يجدون كسرة واحدة ... واحدة فقط ... يسكتون بها جوعهم لكي يتمكنوا من مواصلة الحياة ...

والله يا عبد القادر لقد انكسرت عشرات المرات ، وانطويت لأيام طويلة على جرحك الدامي هذا: أن يتلهى المترفون برمي طعامهم الزائد في القمامات ، وأن يتضور ألوف الناس قبالتهم تماما، مسغبة وجوعا ...

وصرخت محاولا أن ترفع صوتك إلى مداه الأقصى علك تجد من يسمعه في هذا الفضاء الواسع الذي ذرعته منذ ساعات وساعات بحثا عمن تقدم له كسرة الخبز التي تعيد إلى الحياة : أيها المسلمون في العالم ... أيها المؤمنون ... أيها الذين يدعون انتمائهم لهذا الدين ، ولكنهم لا يحركون يدا أو لسانا وهم يرون بأم أعينهم هذه المفارقة المحزنة التي لم تشهدها من قبلهم ، ولن تشهدها من بعدهم ، أمة من الأمم الأخرى: الطعام الفائض عن الحاجة ، وما أكثره وأوسعه ، يرمى في المزابل ، وآلاف الجوعى يتضورون ، وينتظرون لحظة الموت علها تنقذهم من معاناتهم المبهظة مع الجوع الذي لا يرحم ...

ثم ما تلبث أن تهدئ من روعك ... تخفف من غضبك الجارف ... تكنس من ذاكرتك المترعة بالويل ، ما علق بها من مصائب وأحزان وأنت تتذكر رسولك العظيم ... معلمك ... نبيك ... قائدك ... وهو يبيت على الطوى ويشد على بطنه قطعتين من الحجارة لكي يسكت بها صرخات الجوع ، تتذكره وكأنه يقف قبالتك تماما وهو يأخذ بيد أبي ذر ويقول (ما يسرني أن عندي مثل أحد هذا ذهبا أموت وعندي منه دينار إلا أنه أقول به في عباد الله هكذا وهكذا وهكذا) عن يمينه وعن شماله وعن خلفه ثم وهو يمشي ويقول (أن الأكثرون هم الأقلون يوم القيامة، إلا من قال: هكذا وهكذا وهكذا ... وقليل ما هم)!!

تتذكره وهو يوزع الغنائم الوفيرة التي تجمعت لديه من جراء هزيمة خصومه في حنين ، فيناديه الأعراب الفقراء: يا رسول الله أقسم علينا فيئنا من الإبل والغنم ويزدحمون عليه حتى يلجئوه إلى شجرة اختطفت عنه رداءه ، فيقول لهم: (ردوا علي ردائي أيها الناس ، فو الله لو كان لكم عندي بعدد شجر تهامة نعما لقسمته عليكم ، ثم ما ألفيتموني بخيلا ولا جبانا ولا كذابا) ثم يتقدم إلى بعير قريب منه فيستل منه وبره يضعها بين أصبعيه ويقول: (أيها الناس والله مالي من فيئكم ، ولا هذه الوبرة ، إلا الخمس والخمس مردود عليكم) !!

تتذكره وهو يقول: (إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو، أو قل طعام عيالهم بالمدينة ، جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسوية ، فهم مني وأنا منهم) !!

وعدت لكي تصرخ من جديد ، في ذلك الليل المدلهم المعتم الذي اجتزت ظلماته منذ ساعات وساعات فأين هم أحفادك يا رسول الله من هذا كله؟ أين هم ذراريك الذين يملئون السهل والجبل ويغطون ثلث الدنيا ، من هذا كله ، أين هم أبناء أمتك الذين وعدتهم بالشفاعة يوم الحساب العسير ، من هذا كله ؟!

وأنت تجتاز واديا عميقا أعترض مسيرك، التمت حولك مجموعة من الضواري والأسود ، فما كان منك إلا أن تجأر قبالتها بالدعاء في أن ينجيك الله من غدرها ... وإذا بها فجأة تتحول إلى أخوة وأصدقاء ، فتتمسح بأذيالك وتتشمم رداءك وتسير بمعيتك أينما سرت وحيثما توجهت ، وكأنها قد اختارت أن تكون حارسة لك من غدر الغادرين وعدوان المعتدين ...

وأنت تحسّد بحنان ظهر أحدها كنت تتمتم مع نفسك: إنها قدرتك يا رب أن تقلب معادلات الحياة الدنيا رأسا على عقب ، وأن تجعل الأسود والضواري أصدقاء وأخوة للإنسان ... إنها قدرتك يا من لا إله إلا أنت ... ومضيت لا تلوي على شيء، ومن حولك الأسود والضواري ... تنزل فينزلون ، تصعد فيصعدون ... وما تلبث أن ترجع إلى عبارتك التي أسرتك منذ غادرت بغداد ، ميمما صوب الجوعى والضائعين : (أود لو أن الدنيا كلها بيدي فأطعمها الجياع)!!

ولدهشتك ... لفرحتك الطاغية، وجدت نفسك فجأة قبالة مجموعة منهم ، وهي تشير إليك بنظرات فقدت بريقها منذ زمن بعيد ، وبأيد مرتجفة لا تكاد تستقر على شيء ، وبأجساد ضامرة اعتصرها الجوع المزمن فلم يترك فيها قطرة من حياة ... أشاروا إليك وكأنهم خمنوا من تكون، ولماذا أتيت إليهم عبر هذا الليل البهيم، فما كان منك إلا أن ترمي بالشوال الذي ناء به ظهرك عبر المسيرة الطويلة، تفتحه وتقول لهم بألفة ومحبة سابغة: ها كم ما قدرت عليه ... كسر الخبز واللحم المقدد والسويق ...

أنقضوا على الطعام بنهم جاوز حدوده القصوى ... وراحوا يضربون بأيديهم ذات اليمين وذات الشمال من أجل أن يدفعوا إلى أجوافهم الفارغة، منذ زمن بعيد ، أكبر قدر من الطعام !!

كنت يا عبد القادر تنظر إليهم وعيناك تذرف الدموع سجاما ، محاولا ألا تقع أنظارهم عليك كي لا يشعروا بنوع من الحرج ... وعندما انتهوا من تناول وجبتهم تلك تقدموا إليك لكي يعربوا لك عن امتنانهم العميق ...

كنت لحظتها في مكان آخر غير هذا المكان ... في زمن آخر غير هذا الزمن ... ازاء شخوص آخرين غير هؤلاء الشخوص ، وأنت تفتح لهم ما تحمله على ظهرك من طعام وتقول لهم بألفة ومحبة: كلوا ... ثم ما تلبث أن ترفع صوتك إلى مداه الأقصى بعبارتك الأثيرة: (أود لو أن الدنيا كلها بيدي فأطعمها الجياع) !!

الويل ...

دق جرس الهاتف ليلة عيد الفطر المبارك في ساعة متأخرة من الليل فرفعت السماعة متسائلا فإذا به أحد معارفي يخبرني عن مأساة آل الطوبجي وآل حمودات ، وضرورة حضور مجلس العزاء الذي سيقام عصر يوم غد في حي الصديق.

سألته وأنا أحس بكآبة الدنيا تطبق على أنفاسي: ما الذي حدث ؟

لقد تعرض للقتل أربع نساء من أسرتهم ...

دارت الدنيا قبل أن أقفل سماعة الهاتف وسألته ثانية: قل لي ماذا حدث ؟ أفصح ؟ من يقف وراء هذا الحادث الدموي الرهيب ؟

أجابني محاولا أن ينهي المحادثة: ستعرف فيما بعد ... وأقفل الهاتف.

لم أستطع أن أحظى بدقيقة واحدة من النوم عبر تلك الليلة القاتمة ، ورحت أنتظر بصبر فارغ مرور الدقائق والساعات حتى ينبلج الصبح وأعثر على الإجابة عن تفاصيل هذه المأساة المروعة ... أربعة نسوة يقتلن في وقت واحد فما الذي حدث ؟

هرعت عصر اليوم التالي إلى مجلس العزاء مؤملا أن أحظى بالجواب ... كان الناس يتدفقون أفواجا ورحت وأنا لا أزال أعاني من الدوار أبحث عن مكان أجلس فيه، فإذا بصوت صديق قديم من آل حمودات كان يتصدر المجلس يناديني أن أجلس إلى جواره ... لقد كان والد المرأة التي اغتيلت وجد بناتها الثلاث اللواتي لحقنها إلى الدار الأخرى ... احتضنته بقوة وأنا أرخي العنان لدموعي ، وسألته: هل تم إلقاء القبض على القاتل ؟ هل تعرضت الدار للسرقة ؟ راح الرجل الصابر يهز رأسه ولم يجبني بكلمة واحدة ... وسرعان ما تذكرت كيف أنني الليلة الماضية ، اتصلت هاتفيا بابن أخيه في اسطنبول لكي أعزيه بالمصاب الأليم ودعوت الله أن يكشف النقاب عن القاتل ، أو مجموعة القتلة الذين نفذوا جريمتهم تلك بحثا عن الذهب والمال ، فإذا به يجبهني بصمت مريب دونما أي قدر من التعاطف مع دعائي الحار!!

أقفلت الهاتف وأنا أتساءل: ما الذي حدث ؟ ولماذا التزم الرجل الصمت إزاء دعواتي الحارة، وها أنا ذا في اليوم التالي أتوجه في الدعاء نفسه قبالة والد الأم وجد بناتها الثلاث فإذا بي أجابه بالصمت ذاته !!

قلت في نفسي: لا بد أن في الأمر لغزا ما ... وما لبثت بعد أن تناولت رشفة من القهوة المرة أن أعدت السؤال على الجد المنكوب ، فما كان منه إلا أن يحكي لي وبالتفاصيل الكاملة ما حدث يوم أمس وعيناه تنثّان بهدوء شيئا من الدموع بين لحظة وأخرى فيدفعني هذا إلى مشاطرته البكاء الصامت ...

قال الرجل: ليس في الأمر أية سرقة على الإطلاق، لقد وجد الذهب والمال كما هو دون أن تمسه يد!

– لا حول ولا قوة إلا بالله ...

– كنا على موعدنا المعتاد بزيارة العيد التي تقوم بها الأم وبناتها ، فانتظرناهم صبيحة العيد، فطال تأخرهم ، فانتابنا القلق ، فما كان منا إلا أن نتلفن لهم فلم يرد علينا أحد ، وما لبثنا أن تلقينا أنباء هذه الفاجعة التي عصفت بهذه العائلة المنكودة !

أجبته متسرعا فك اللغز الذي حيرني الساعات الطوال: فمن هو إذن وراء هذه الجريمة البشعة ؟

قال: إنه حفيدي !!

دارت الدنيا بعيني، ولم أعد أتبين أيما شيء مما يقول الرجل، بينما واصل هو حديثه: حفيدي هو الوحيد على رأس ثلاث من أخواته ، يبدو أن والده مارس تدليله بأكثر مما يجب فشبّ على غير ما يرجو الآباء لأبنائهم ... كان عليه أن يمارس تربيته بأسلوب آخر غير هذا الأسلوب الذي قاده إلى ما يشبه الانفصام ... وربما الجنون !

– عجيب !

– ليلة العيد السوداء تلك، حيث لم تكن رؤية الهلال قد تبينت بعد ، وكان على المصلين أن يمارسوا صلاة التراويح ... ناداه أبوه أن يذهب معه إلى الجامع لتأدية الصلاة ، لكنه أعتذر ... يبدو أنه قد أسر شيئا في نفسه ... إذ كانت عنده بندقية صيد كان أبوه قد أشتراها له في سياق تلبية طلباته كافة ، فتركه الأب وغادر إلى المسجد لأداء الصلاة ، فما كان من هذا الابن إلا أن حمل بندقيته وملأها بكرات الصيد وأقفل أبواب الدار من الداخل وأتجه إلى أمه فصوب نحوها بندقيته وأطلقها، ثم ما لبث أن استدار إلى أخواته الثلاث لكي يلحقهن بالأم الواحدة تلو الأخرى ، وهن يصرخن ويتوسلن به ألا يقتلهن ، لكنه لم يكترث لتوسلاتهن ، وراح يمارس قتلهن بدم بارد ... ولك أن تتصور رعبهن ومعاناتهن وأمهن قبل أن يفارقن الحياة ، فان القتل بكرات الصيد لا يسوق الإنسان مباشرة إلى الموت ، بل قد يمضي وقت قد يطول قبل أن يلفظ أنفاسه ... و ...

قاطعته: وماذا بعد ؟

– عاد الأب من صلاة التراويح لكي يجد الابن قبالته ، وجها لوجه ، وبيده بندقية الصيد وهو يشير ببلاهة إلى الجثث الأربعة المبعثرة في غرف الدار ... وما لبث الأب أن راح يصرخ ، يا للهول وينادي جيرانه أن يشاركوه مصابه الأليم وهو ينقض على ابنه الوحيد لكي يشبعه ضربا وركلا وهو يصرخ فيه: لقد هجمت بيتي ، وسحقتني حتى العظم ... فماذا أفعل بك ؟

أجاب الولد الذي لم يكن قد تجاوز السادسة عشر من عمره: لا داعي لأن تتعب نفسك فلسوف أعترف أمام الشرطة بأنني أنا الذي قتلتهن !! وراح يحسد باعتزاز على بندقية الصيد التي لا تزال بيده ...

وجاءت الشرطة، وأخذوا الولد مكبلا بالحديد إلى أقرب موقف ، بانتظار إجراء محاكمته وإصدار القرار بحقه ...

قلت وأنا أحس بقدر كبير من ضيق النفس والاختناق: إنا لله وإنا إليه راجعون ...

واصل الرجل حديثه: هل تدري ؟ أن إحدى أخواته كانت تغمرها فرحة كبيرة بسبب نتيجتها في امتحان الثالث المتوسط ... الأولى على مدارس العراق كافة ، وكانت فخورة بأن تأتي لزيارتنا صبيحة العيد لكي تزف إلينا البشرى ...

- لا حول ولا قوة إلا بالله ...
- وكانت شقيقتاها الاثنتان من المتفوقات في الدراسة كذلك!
- إنا لله وإنا إليه راجعون ...

مر الوالد المنكوب قريباً منا فناداه الجد أن يجلس إلى جواري قليلا لكي أعزيه بمصابه الأليم ، فما كان مني إلا أن أستدعي كل ما يخطر على البال من آيات قرآنية وأحاديث نبوية حول الصبر وأجره العظيم عند الله ... فوجدته بحق صابرا متحملا قل نظيره بين كل أولئك الذين تحيق بهم الكوارث والملمات ... ما لبثت أن غادرت المجلس وأنا أردد قبالة الأب والجد: هذا أمر الله وكان أمر الله قدرا مقدورا ... وحينذاك أدركت لماذا لم يجبني ابن الأخ الذي اتصلت به في إسطنبول بكلمة واحدة وأنا أسأل الله سبحانه وتعالى أن يمكن الجهات الأمنية من إلقاء القبض على القتلة والسرّاق ...

بعد أيام قلائل ، وأنظار أبناء مدينتي معلقة بما سيصدر من حكم على الولد القاتل، وصلتنا أنباء محزنة عن إعدام الولد ، بعد أن خيّر أبوه بين تنفيذ الحكم أو العفو عنه ، ولكن الأب بعد دقائق قاسية من التردد ، تذكر لحظات الويل التي عانت فيها زوجته وبناته من الرعب قبالة بندقية الصيد الموجهة إليهن واحدة تلو الأخرى ، دون أن يقدرن عن الدفاع عن أنفسهن .. وما لبث أن أتخذ قراره الذي لا رجعة فيه: الإعدام !

من أين يبدأ التفكير؟!

عبر أمسية ذكر وعبادة رمضانية في مسجد (الخراز) القائم على مرتفع يطل على غابات الموصل ... جرى الحديث في فترات الاستراحة ، ومن بيننا أطباء متميزون ، إلى تحليل فاعلية كل من الدماغ والقلب في الجهد البشري ، وما لبث أحد الأطباء أن قال: هل تعلمون من أين يبدأ التفكير؟ فأجبناه بسرعة وكأن ما نقوله هو الأمر المتفق عليه والذي لا جدال فيه: العقل طبعا !!

قال والابتسامة تكسو وجهه: أبدا ، فإن القلب هو مركز التفكير ، وهو نقطة اتخاذ القرار بالنسبة للإنسان ... يعطي إشارته للعقل، فيصدر هذا أوامره الحركية لكي ينفذها الإنسان ...

أصابتنا الدهشة لمقولته تلك ، والتي تخالف المألوف لدينا ولدى الناس جميعا ، عالمهم وجاهلهم ... وعندما أجال بصره في وجوهنا متابعا الدهشة التي كستها ، أردف: ليس هذا الكلام من عندي ، إنما هو وليد النظريات الأكثر حداثة في ميدان الطب ، تلك التي تكشف عنها البحوث العلمية المعمقة التي تنشر في دوريات الطب الصادرة عن أرقى المؤسسات العلمية في العالم ...

هذا هو أحد الكشوف التي قد لا تصدقونها للوهلة الأولى ، ولكنكم ستجدون أنفسكم يوما مضطرين للتسليم بها بقوة المنطق العلمي الذي يقوم على المختبر والتجريب ...

ومضت الأمسية كما عهدناها دائما في أداء الصلاة الجماعية، وتلاوة القرآن الكريم، وتوجيه الأسئلة الفقهية والإجابة عليها، وكل منا يدير في ذهنه تلك الآية القرآنية التي تقول: **(فإنه لا تعمى الأبصَار ولكن تعمى القلوب التي فِي الصّدور)** ويقلبها على وجوهها فيجدها مصداقا للنظرية الأكثر حداثة والتي تحدث عنها زميلنا الطبيب ...

قفلت عائدا إلى البيت وأنا أفكر في الموضوع محاولا إقناع نفسي به ، بل أنني مضيت إلى أبعد من ذلك وحاولت أن أقوم بعملية استبطان ذاتي كما يسميها علماء النفس ، لتحقيق المطابقة بين خبرتي الذاتية وبين ما قاله الرجل ، فلم أحظ بنتيجة ... وعندما حططت رأسي على الوسادة وحاولت أن أنسى الموضوع برمته وأنام ، فر النوم من عيني وحل محله جهد مكافح على مدى الليل كله ، لتحقيق المطابقة النفسية بين الفكرة المستلمة وخفقان القلب ... فلم أقدر على تحقيق المطلوب !!

ثم لم تلبث أقدار الله سبحانه وتعالى أن تدخلني تجربتين مع القلب عبر مداخلتين جراحيتين جرت أولاهما في مستشفى ابن البيطار ببغداد عام (١٩٩٠م) وجرت الأخرى بعد ذلك بعشرين عاما في مستشفى بكر كوي في اسطنبول عام (٢٠١٠م) لكي تؤكد لي صدق النظرية إياها !!

في أولى المداخلتين حيث أوشكت أن أتعرض للموت المحقق بسبب النزيف الذي تعرضت له عبر العملية ، ولكنني ما لبثت أن تماثلت لشيء من الشفاء وأنا أنقل إلى أحدى الغرف لاستكمال العلاج لعدة أيام ، فكنت كلما أوشك على النوم أجدني راكبا مقطورة صغيرة تنطلق بي بسرعة هائلة لمسافات طوال ، وعبثا أحاول وقفها أو التخفيف من سرعتها المخيفة ... عبثا ... ويجيء النوم أخيرا لكي ينقذني من هذه الحالة التي ظلت تكرر نفسها على مدى بضعة أيام ... إنها إذن كهربائية القلب التي تتحكم بسلوك الإنسان ، وإذ كنت قد استبدلت الصمام الاهليلي عبر تلك المداخلة الجراحية بأخر معدني ، فقد أحدث ذلك اضطرابا موقوتا في كهربائية القلب ودفعني دفعا إلى أن أمتطي تلك المقطورة المسرعة إلى غير ما هدف محدد ...

وسرعان ما تذكرت حديث الطبيب ذاك ، ومع الحديث تلك الآية القرآنية المعجزة التي تقول: **(فإنه لا تعمى الأبصَار ولكن تعمى القلوب التي فِي الصّدور) !!**

بعد عشرين عاما أجتاز المداخلة الجراحية الثانية ... كنت وزوجتي على وشك مغادرة اسطنبول في أعقاب المشاركة في إحدى المؤتمرات ، وجئنا إلى المطار مبكرين بعض الشيء ، وجلسنا في الكافيتريا لتناول فطورنا ، وما إن وضعت قطعة من البسكويت في فمي حتى شعرت بغثيان مفاجئ وبأني ربما سأتعرض لإغماءة عنيفة ، فأسرعت قائلا لزوجتي ألا تخاف فلسوف يغمى علي ...

وما لبثت أن فقدت الوعي واستلقيت على الكرسي وقد أصفر وجهي وارتخت يداي وبدأ العرق يتصبب من جسدي ...

لا أدري ما الذي حدث بعد ذلك سوى أني نقلت إلى سيارة إسعاف راحت تذرع بسرعة فائقة شوارع اسطنبول حتى أوصلتني مستشفى (بكر كوي) حيث طرحت على السرير في الردهة الواسعة لمرضى القلب من ذوي الحالات الطارئة التي تتطلب العناية المركزة ... وغبت ثانية عن الوجود ...

في اليوم الثاني حيث استرجعت شيئا من عافيتي ، حدثتني زوجتي عما جرى يوم أمس ، إذ أنها سرعان ما قامت بتفتيش جيوبي فوجدت لحسن الحظ ورقة قد دونت فيها هواتف المعارف والأصدقاء في اسطنبول ، فما كان منها إلا أن تتصل بأحدهم ، فيجيء بسيارته مسرعا ، ويقوم بإلغاء الحجز ونقل حقائبنا إلى سيارته ، ويرتب أمر الحجز في مستشفى بكر كوي ويستدعي سيارة الإسعاف ، حيث أجريت لي مداخلة قسطرة أولية ، تبين للأطباء من خلال العجز المريع الذي انخفض إلى ما دون الربع من طاقته الاعتيادية ، وأن أمر موتي وحياتي معلق بإرادة الله ...

في تلك الليلة السوداء استدعيت زوجتي من دار ابنة ذلك الصديق الفاضل ، إلى المستشفى ثانية حيث أعلمها الأطباء بأنني أتأرجح على الحافة بين الحياة والموت.. ثم ما لبثت

الأمور أن بدأت تتحسن وعدت ثانية إلى صالة العناية المركزة حيث تم ربطي بشبكة من الأجهزة والأسلاك التي تحدد حجم الجهد القلبي الذي كان يرتفع على حين غفلة إلى أكثر من الخمسين ثم ما يلبث أن يهبط إلى ما دون العشرين ...

قضيت أسبوعا بكامله في العناية المركزة بانتظار تنفيذ المداخلة الجراحية لوضع البطارية داخل الصدر تضخ قدرة مضافة إلى الجهد القلبي .. وعبر ذلك الأسبوع ، حيث تعرضت الكهربائية للخلل بسبب مداخلة القسطرة تلك .. رحت أرى أحلاما ما ألبث صبيحة اليوم التالي أن أتصورها حقيقة واقعة وأطلب من زوجتي أن تتحرك بناءً على مقتضياتها ، مؤكدا عليها متابعة الموضوع وهي تنظر إلي بدهشة بالغة وتعدني بتلبية المطلوب ، لكنها راحت تشك في قدراتي العقلية ، فما كان منها إلا أن تتجه إلى الطبيب المختص تسأله عن هذا الذي ألمّ بي ، فإذا به يطمئنها أن هذه الحالة أمر طبيعي معتاد لمعظم مرضى القلب الذين تتعرض كهربائية قلوبهم للخلل قبل المداخلات الجراحية أو بعدها ... فلتطمئن ...

ما بين الأحلام التي رأيتها وتصورتها حقائق واقعة لا تقبل نقاشا ، حضوري حفلا تكريميا لنزلاء ردهة العناية المركزة ، حيث ألقيت خطابا حماسيا في تقييم الدور الذي يقوم به أطباء المستشفى، ثم ما لبثت أن يممت وجهي صوب قاعة خارجية تجمهر فيها عدد كبير من الأصدقاء القادمين من الموصل ، حيث ألقيت فيهم كلمة ترحيبية ضمنتها دفاعا منطقيا محكما عن براءة السيدة عائشة زوجة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ... ثم غادرتهم إلى محل قريب لبيع البقلاوة التركية الرائعة فاشتريت عدة كيلوات ، ولما مددت يدي لدفع المبلغ لم أجد ما يكفي فقلت للبائع بأن عليه أن يحتفظ بما اشتريته من محله ، ولسوف أرسل غدا من يأتي بالنقود ويتسلم البقلاوة .. وفي اليوم التالي حدثت زوجتي التي كانت تزورني صباح كل يوم بما حدث يوم أمس وبأن عليها أن تجتاز الشارع المجاور، حيث يقبع محل بيع الحلويات، لكي تدفع لصاحبه المبلغ المطلوب وتتسلم صناديق البقلاوة .. كانت تحدق في بدهشة بالغة ، ولكنها عندما رأتني ألح في طلبي وعدتني خيرا وهي تتذكر طمأنة الطبيب المختص بأن هذه الهلوسة أمر عارض وأن عليها ألا تقلق عن سلامة عقل زوجها ...

وطالما قلت لها: أنظري إلى السماء ، إنها تسقط كما كبيرا من الثلوج وأنا ممن يستهويني منظر الثلوج المتساقطة من السماء ، ثم ما ألبث أن أسحب الغطاء لكي أتدثر به جيدا من قرصة البرد ... رغم أن الجو كان يوم ذاك في منتصف الخريف يميل إلى الحر..

ويوما: صرخت في الممرضين أن يفكوا قدمي من وثاقه المشدود بحافة السرير ، فلم يكترثوا لصراخي ، فصرخت ثانية: إذن أفتحوا نوافذ الصالة فإن الحر يكاد يخنقني ... فلم يردوا على ندائي ... فما كان مني إلا أن أقول لهم بعصبية بالغة أنكم صهاينة وإلا لما استخففتم بتوسلاتي !!

وفي حلم آخر رحت أنادي الطبيب والممرضين أن ينادوا على زوجتي التي كانت تجلس قريبا من الباب ، لكي تجيء وتجلس إلى جواري ، فلم يردوا علي ، فما كان منها إلا أن تغادر وتتركني وحيدا ...

وانتقاما مني بسبب صراخي فيهم قرروا أن يضعوا إلى جواري على السرير الذي استلقى عليه مريضا آخر ، أحسست لدى ملاصقته إياي بالاختناق ، وبأن أنفاسي تكاد تغيب إلى الأبد ... وبصعوبة بالغة أقنعتهم بسحب المريض من سريري ... وحينذاك فقط استعدت تنفسي ... واستطعت أن أنام ...

وهكذا راحت الأحلام ترى ... وأنا أزداد يوما بعد يوم ثقة بمصداقيتها ، ويكون حديثي مع زوجتي كما لو كانت أمرا واقعا ...

أليس ذلك كله مما يقربنا من مقولة زميلنا الطبيب المذكور في مسجد الخراز ، وبالكشوف الطبية الأكثر حداثة حول مركزية القلب في عملية التفكير ؟!

الجريمة والعقاب ...

مضطرا إلى استعارة عنوان رواية الأديب الروسي الشهير (دوستويفسكي) التي تحمل الاسم نفسه لأن الذي شهدته مدينتي الموصل عبر حادثين مروعين وفي زمن ومكان متقارب يرغم الإنسان على تذكر العنوان إياه ...

في منتصف شارع الغزلاني غربا باتجاه وادي حجر يقع بيت (.....) العتيق الذي يعود بناؤه إلى أربعينيات القرن الماضي ، حيث كانت تسكن الجدة العجوز وحفيدها الشاب ... يبدو أنها كانت قد جمعت عبر عمرها الطويل مقادير طيبة من الذهب والدنانير ، خبأتها في مكان من سراديب هذا البيت العتيق ... وكانت من أجل الاطمئنان عليها ، تكشف النقاب عنها بين الحين والحين لكي تطمئن على سلامتها من السرقة ...

مرة ومرتين وثلاثا ... وعشرة وعشرين ... كانت هذه المرأة العجوز الحريصة على كنزها ذاك ، رغم أنها قد أوغلت في العمر تقوم بالاطمئنان عليه ... وكان عليها أن توظف هذا الخزين فيما يقربها أكثر وأكثر من رضا الله سبحانه ... ولكن وكما قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (لو كان لأبن آدم واديان من ذهب لتمنى أن يكون له ثالثا) ... إنها والحق يقال سنة الحياة، وقد تكون سببا في استمراريتها وعمرانها ... من يدري ؟

يبدو أن الحفيد بدء يلحظ غيبة جدته بين الحين والحين ، وترددها على سرداب الدار ، ثم مغادرتها إياها وعلائم الرضا والارتياح تغمر وجهها الذي ملأته السنين بالأخاديد والتجاعيد ، فما كان منه إلا أن يلحقها يوما وهو يجتاز درج السرداب على رؤوس أصابعه كي لا تحس بوجوده، لكي يرى ما الذي تفعله الجدة عبر ترددها ذاك الذي جاوز المألوف من نزول الناس إلى سراديبهم.

وفجأة لمحت عيناه، عبر إحدى الخزانات الخلفية في كندور عتيق ، أكداس الذهب تلمع هناك ، فما لبث لعابه أن سال ، وراح يحدث نفسه ، وهو ذلك الولد المراهق العاق الذي لا يكترث لأية قيمة أخلاقية أو دينية على الإطلاق ، أن يضع يده على هذا الكنز الثمين ... وراح خياله يسرح بعيدا .. بعيدا .. وهو يتصور نفسه يمارس كل ما يشتهيه الإنسان بالحق والباطل ... على الأقل في أن يشبع شهيته لألوان الطعام التي حرمته جدته منها ... ويمضي بعيدا باتجاه كل ما يخطر على البال من حلال وحرام ...

أنقض الولد المراهق على الكنز المخبوء دون أن يكترث لما أصاب جدته من فزع للمفاجئة التي لم تحسب حسابها ، ولم تخطر لها على بال ، يريد أن يضع في جيوبه منه حفنات تعينه على تحقيق أمانيه وشهواته ، فما كان من الجدة إلا أن تصرخ ، فيما تبقى لها من طاقة ، صرخة هائلة اهتزت لها جوانب الدار العتيق ، وراحت تدافع بيديها الكليلتين عن الكنز المخبوء.

خشي الولد الشقي من أن يتدفق الجيران ، وربما الشرطة ، بعد سماعهم صرختها تلك ، بينما راحت العجوز تواصل صراخها ، فما كان منه في لحظة خوف امتلك عليه كل جوارحه ، ومن أجل أن يكفها عن الصراخ إلا أن يمسك رقبتها بكلتا يديه ويضغط بما أوتي من قوة عليها كي يسكتها ، مؤملا أنه ستمضي المحاولة على خير وأن تكف المرأة عن الصراخ ، وأن يضع في جيبه من ثروتها المخبوءة ما يعينه على الانطلاق مع الحياة ...

لكن فاله خاب إذ سرعان ما وجد الجدة تكف عن الصراخ ، وترتخي ذراعاها ، ويغدو وجهها بلون الشيح الأصفر ، ثم ما يلبث جسدها أن يرتعش وتسقط أرضا وقد فارقت الحياة !!

أصفّر وجهه هو الآخر، وتملكته موجة هائلة من الرعب جعلته يتردد قليلا لا يدري ما يفعل ، ثم ما يلبث أن يفلت قبضة الذهب من يديه المرتعشتين ويغادر السرداب هاربا لا يلوي على شيء.. لقد اختفى الولد المراهق بعد أن قتل جدته!!

وسرعان ما تجمهر الجيران ، والمارة ، ثم ما لبثت الشرطة أن لحقت بهم وهم يعاينون الجثة ويرددون: لا حول ولا قوة إلا بالله ... وسارع أحد الناس الطيبين بالتحفظ على الذهب ريثما يتم الاتصال بأقرباء العجوز لتسليمهم إياه ...

ما الذي جناه الولد من فعلته الحمقاء تلك ؟ فها هو الآن يعيش مشردا من مكان إلى مكان، تتقاذفه المخابئ وتلاحقه اللعنات ...

ولم يدر أحد، فيما أعقب جريمة القتل من أيام وأسابيع وأشهر طوال ، ما الذي حل بالولد، وهل ألقي القبض عليه وسيق إلى المحاكم أم لا يزال يتنقل من مكان إلى مكان دون أن يقر له قرار ؟!

بئست صفقة الشيطان تلك ، لقد خسر الولد كل شيء ... خسر ما كان سيؤول إليه من ذهب جدته في حالة وفاتها الطبيعية ... وخسر الإحساس بالأمن ... بينما أمسك به رعب دائم من أن تكتشف الجهات الأمنية مكانه وقد تسوقه إلى المحاكم فالإعدام ...

وكلما مررت بالدار المشؤومة تلك ، في طريقي اليومي إلى عملي ، ألقيت نظرة رثاء له ، حيث لم يبق فيه أحد من الساكنين ، وحيث خلعت أبوابه وترك نهبا للسراق والأشقياء ... إنه والحق يقال صورة كاريكاتيرية لتفاهة الحياة الدنيا التي يرحل عنها أبناؤها دون أن يأخذوا فلساً واحداً ، ويتركوها مخلعة الأبواب ، كئيبة ، موحشة لا تتردد في جنباتها خفقة واحدة من الحياة ، ولطالما تساءلت مع نفسي وألححت في السؤال: ترى ألا يتعظ الإنسان وهو يرى هذا بأم عينيه هذا المصير الأسود الذي قد يحيق بكل ما جمعته يداه، ويغادر الدنيا بضربة يد غادرة قد تأتي على جهد عمر بكامله عبر لحظة واحدة ؟

ومع ذلك ... بل مع ذلك ... شهدت المنطقة ذاتها ... وعلى بعد مسافة قريبة من الدار المهجور ... فاجعة أخرى ، شبيهة إلى حد كبير بهذه التي نتحدث عنها ونتساءل: ترى متى يتعلم الإنسان كيف يتعامل مع الحياة ؟!

إذ ما لبث الناس أن راحوا يتحدثون عن واقعة قتل أخرى لولد شقي آخر تجاه جدته ، نعم ومرة أخرى ، وربما ثالثة ورابعة وعاشرة وألف ... الحفيد الذي أغرته كنوز جدته من الذهب والفضة ، فما كان منه بعد أن توسل إليها مراراً ، أن تعطيه شيئا منها ... شيئا ولو يسيرا لكي يبل شوقه لمتع الحياة ويحيا كما يحيا أصدقاءه ممّن الذين أنعم الله عليهم ممّن يعطيهم بسخاء ...

لكن يبدو أن الجدة لم تكترث لتوسلات الحفيد ، بينما راح هذا يلح عليها ، يرجوها ، يتمنى عليها أن تفتح يدها ولو على شيء ضئيل ، ضئيل جدا من ذهبها وفضتها المخبوءة ... وطالما لمح لها بأن الموت يقف على الأبواب ، وقد يطرق عليها في يوم قريب ، فماذا ستكسب من كنزها المخبوء هذا ؟ ولكنها كانت كما يقول المثل تعطيه إذنا من عجين وأخرى من طحين دون أن تكترث لتوسلاته على الإطلاق !!

وحينذاك أتخذ الولد المراهق قراره ، عبر ساعة حلم شيطان ينسى معه الإنسان كل الضوابط والمعايير ويندفع ، دونما إدارة أو وعي إلى هدفه على خط مستقيم ... سأقتل هذه العجوز لكي أضع يدي على كنزها الذي حرمتني من أي شيء منه على الإطلاق.

وأنقض على جدته، امسك بها من رقبتها وراح يضغط عليها بعنف وعصبية ، وفمه يقذف زبابيد من رغوة اللعاب ... فوجئت المرأة بهجوم حفيدها غير المتوقع على الإطلاق ، وأرادت أن تصرخ ... أن تستغيث ، ولكن سبق السيف العذل، فتعثرت الصرخة المكتومة في حلقها ، ثم ما لبثت أن فارقت الحياة !!!

أخذ الولد كل ما خزنته من ذهب ، وغادر الدار لا يلوي على شيء ... لكنه ما لبث أن اكتشف أمره .. وسيق إلى المحاكمة العادلة ، لكي ما يلبث الحكم أن يصدر عليه بالإعدام ، ثم التخفيف بالسجن المؤبد بسبب عدم تجاوزه السن القانونية ...

ولا يزال الولد الشقي يعاني المرارة والحسرات في سجنه ، ويندم على اللحظات الشيطانية التي دفعته لارتكاب جريمته تلك.

وبالنسبة لهذين الولدين التعيسين الذين كتبت عليهما حياة التشرد والملاحقة والخوف والاعتقال ... لا أجد ما ينطبق على حالهما المترع بالسوء من ذلك المثل الذي طالما تناوله الناس عبر أحاديثهم (خرجت النعامة تطلب قرنين، فرجعت بلا أذنين)!!

نعم ، لقد أراد المراهقان أن ينعما بحياة مترعة بالملاهي والملذات ، وهما يبعثران النقود التي سرقاها من جدتيهما ذات اليمين وذات الشمال ، ولكنهما انتهيا إلى هذه النقر الضيقة التي يختنقان فيها ... إنها حكمة الحياة!

ألا يذكرنا هذا كله برائعة دوستويفسكي (الجريمة والعقاب) حيث الحفيد يمارس قتل جدته لكي يحظى بما ادخرته من أموال ، ولكن العقاب كان له بالمرصاد ... تماما كما كان بالمرصاد لهذين الولدين الشقيين !!

لقاء الراحلين ...

ليسوا أولئك الراحلون عن الدنيا فحسب ، بل كل أولئك الذين تفرقت بهم الأسباب ، فرحلوا هنا أو هناك، وغابوا عن الذاكرة ... بعضهم توفي فعلا ، وبعضهم الآخر ترك البلد مهاجرا إلى أصقاع الدنيا البعيدة ولم يرجع إلى دياره بعد ذلك أبدا ... وبعضهم الثالث تفرقت بهم أسباب الدنيا وهمومها ومطالب المعاش كل إلى زاوية من المدينة أو مكان بعيد.

بمرور الوقت ، وبعد اجتياز العقود العديدة من الزمن هيمنت علي فكرة عجيبة وراحت تضغط على جملتي العصبية بإلحاح ... تدفعني دفعا إلى أن أستجيب لمطلبها الذي يكاد أن يكون من قبيل المستحيلات إذ أنى لي أن التقي ثانية ، أو أتحدث على الأقل ، مع مجموعة كبيرة من طلبة الابتدائية والمتوسطة والإعدادية ، أولئك الذين عايشتهم زمن الدراسة ، وشكلت معهم أعمق الصلات ، كيف لي أن ارجع إليهم كي المهم في لقاء واحد أو عدة لقاءات بعد مضي ما يزيد عن الستين عاما على أيامي معهم ومعايشتي إياهم ؟!

لكنه نوع من الوسواس القهري ، أو التسلطي الذي إذا أحكم قبضته على الإنسان ساقه إلى ما يريده هو ويهواه، لا إلى ما يريده الإنسان.

وأحاول أن أنسى الموضوع برمته ، أو أتناساه ... أن أبعده إلى طبقة بعيدة في الوجدان ، محاولا إقناع نفسي بإهماله بالكلية ، لأن طلبا مستحيلا كهذا أحرى بأن يتم تجاوزه ولا يستجاب لإغرائه ، رغم قوة هذا الإغراء ، ولكنه ما يلبث أن يعود لكي يمارس ضغطه على جملتي العصبية لكي يسوقني إلى الاستجابة لإلحاحه العجيب.

أخيرا ، وبعد أن أعياني الصراع ما ألبث أن أستجيب للطلب فأحس بقدر كبير من الارتياح، فها أنا ذا قد تجاوزت شد الأعصاب ، والحيرة، والقلق ، وأستقر بي المركب عند شاطئ الأمان !!

شمرت عن ساعد الجد ، وبدأت بوضع قائمة تتضمن أسماء كل أولئك الطلبة الذين عايشتهم في سن دراستي الابتدائية والمتوسطة والإعدادية ، فإذا بالقائمة تتجاوز المائة والثلاثين أسما ...

يا الله ... قلت لنفسي، كيف لي أن أتصل بهؤلاء جميعا ، أو على الأقل أن أعرف عن مصائرهم شيئا ، وأين انتهت بهم رحلة الكدح الحياة ؟ كيف لي أن أحظى بعناوينهم جميعا ، أو حتى بأرقام هواتفهم لكي اتلفن لهم إن كان عندهم هواتف وأرقام ؟! إنه نوع من الضرب في المستحيل ... ولكن ثمة حل وسط ، أن أحصل على أولئك الذين رحلوا عنها بعد العثور على عناوينهم من هذا الصديق أو ذاك.

وسرعان ، بعد أن اقتنعت بالحل الوسط هذا ، أن بدأت الرحلة الصعبة ، فعثرت على العديد منهم ممن اختاروا البقاء في مدينتي ، ودونت عناوين وهواتف العديد الآخر منهم عن طريق استشارة المعارف والأصدقاء.

قلت لهم متوسلا: أرجو مساعدتكم في الاستجابة لطلبي ، وأنتم تعرفون محبتي لكم ورغبتي في اللقاء بكم والتحدث إليكم ، فماذا لو اجتمعنا في مكان واحد ، في بيت أحدنا ، أو عبر أحد المقاهي أو أحدى الصالات لكي نسترجع ذكرياتنا العذبة زمن الدراسة ، بجدها وهزلها ، ولكي يحتضن بعضنا بعضا ويشبعه لثماً وتقبيلا ... إن زمننا الراهن الذي نحياه قد فقد عمقه الحقيقي، أصبح بلا طعم ولا لون ولا رائحة ... أيامه تكرّ دونما أي قدر من التبديل أو التغيير ... دونما أي قدر من السماحة والرضا ... دونما أي قدر من المحبة والتعاطف التي شربناها زمن دراستنا حتى الثمالة ... أننا نعيش حياتنا بالطول والعرض ، حيث يختفي العمق، وتضيع البهجة والفرح، وتغيب الدهشة التي كانت تمنح حياتنا يومها طعمها الشهي العذب ، السائغ المذاق ...

بعضهم أعرب برغبة ملحوظة عن إجراء اللقاء ، وبعضهم الآخر تردد قليلا ، ثم ما لبث أن أعرب عن موافقته ، بعضهم الثالث أعتذر لسبب أو آخر ، وأما بعضهم الرابع فلم يكلف نفسه حتى عناء الرد على طلبي !

قلت في نفسي: لا بأس ، فما لم يدرك كله لا يترك جله ، وهؤلاء الذين سألتقي بهم قد يغنون عن حضور الآخرين ... المهم أن نشم في بعضنا عبق الماضي الجميل ، والأيام السعيدة، والذكريات العذبة ...

وما لبث اللقاء الموعود أن عقد في صالة إحدى المنتديات الاجتماعية، بعد أن تم حجزها لهذا الغرض ، وبدء المدعوون من أصدقائي الأعزاء يتدفقون ...

دهشت لعددهم ... لم يتجاوزوا الثلاثين ، فأين إذن المائة الآخرون ؟ بعد تبادل التحيات والقبلات والإمساك بأحضان بعضنا بعضا ، نظر أحدنا إلى الآخر وسط ملامح الحزن والدهشة وكأننا نقول: أهكذا تفعل الأيام بالإنسان ؟ أهكذا يمضي منشار العمر لكي يفترس جسد الإنسان وروحه معا ؟ أهكذا يتحول أولئك الطلبة الذين كانوا يفيضون صحة وعافية وحيوية ونشاطا إلى هذا الركام الذي لا يكاد يتحرك إلا بصعوبة بالغة. حتى إن بعضهم جاء وهو يتوكأ على عكازه ويسير متأرجحا وكأنه يخشى السقوط ؟ وأقول في نفسي وأنا أحدق فيهم بمحبة بالغة: إن ستين عاما من الفراق ليست بالأمر الهين ، إنها كافية لأن تهرس الإنسان ، وتتركه حطاما ، ولكن ، الحمد لله، على أنهم لا زالوا أحياء وأنهم يتحركون!! وإلا لما استطاعوا تلبية الدعوة الغريبة هذه.

بدأت سؤالي إياهم عن السبب في غياب المائة الآخرين ؟ فقال أحدهم: إن بعضهم قد غادر الدنيا منذ زمن بعيد ...

قلت متلهفا: مثل من ؟

أجابني: كثيرون ... كثيرون جدا ولكني أذكر منهم باسل محمد ثابت زميلنا في المتوسطة ذا القلب الطيب والبشاشة التي لم تكد تغادر ملامح وجهه ، لقد توفي أثر رصاصة طائشة زمن ثورة الموصل عام (١٩٥٩م) وهو يقف على باب داره يلقي نظرة على الصراع المحتدم بين الشيوعيين وخصومهم ، عليه رحمة الله ... ومن عجب أن أخوته كافة توفوا هم الآخرون كل على طريقته الخاصة: لؤي الذي قيل يوما ، عام (١٩٥٦م) ، بأن جهاز الأمن قد حقنه بالسم بسبب من دوره المعروف في ثورة الطلبة يوم ذاك ، عدي مات غرقا ، أخوهم الآخر الذي لا يحضرني اسمه أصيب بالجنون ثم ما لبث أن توفي شابا ...

قال: عادل حمدي شريف الذي لم تكد البشاشة – هو الآخر– تغادر وجهه ، والذي كان يتميز بالخلق العالي والمحبة السابغة ، توفي بعد أن أصبح محاسبا في مديرية الكهرباء الوطنية بالسكتة القلبية ... عدنان حمو ، زميلنا الآخر في المتوسطة الذي كان يتميز بشقاوته وبعشقه للخمر ، توفي وهو في عز شبابه مخمورا على حافة نهر دجلة ، ربما يكون قد قتل ، وبذلك حصد نتيجة سلوكه السيئ ... محمد سلطان الذي كنا نلقبه بالأعور ، لأنه كان كريم العين ، والذي كان شقيا هو الآخر ، توفي في حادث سيارة على الطريق العائد من بغداد إلى الموصل بعد أن أصبح محاميا ... إسماعيل إبراهيم ، مراقب الصف الأول زمن دراستنا الابتدائية ، الذي كان يتيما وتربى لدى خالته ، لكنه كان يتميز بطوله الفارع ، وبالدهاء والنشاط، لقد أبتكر – كما يذكر بعضكم – طريقة لامتصاص نقودنا وموجوداتنا ، بأن يضع في كتاب القراءة الابتدائية مجموعة من الصور ويبعثرها بين صفحات الكتاب ، ويتقدم بها إلينا لكي نسحب من الكتاب نفسه مقابل فلس أو فلسين ، أو لقاء قلم أو ممسحة ، ونحن نمد أيدينا بشغف إلى الكتاب ونفتح إحدى صفحاته لكي ما نلبث أن نفاجأ بعدم وجود الصورة التي كنا نحلم بالعثور عليها ، وهكذا كان يمضي إلى الطلبة الآخرين ويمتص نقودهم وموجوداتهم ويغادر المدرسة وقد اكتظت حقيبته بها ... وقلة قليلة منهم من تحظى بالمطلوب فترجع إلى دورها سعيدة فرحة لأنها قد حصلت على إحدى صور إسماعيل إبراهيم.

في عام (١٩٥٩م) زمن الفتنة الشيوعية السوداء التي شهدتها الموصل ، طرقت أسماعنا رواية تقول بأن مراقبنا إسماعيل قد اغتيل ، وإن السبب في اغتياله المنكود كان هو الصراع الذي دار بينه وبين أحد المتقدمين لخطبة الفتاة التي كان إسماعيل قد سبقه إليها.

جلمان ... وعندما نطق بهذا الاسم ، إذا بمعظم الحضور يضجون بالضحك ، وإذا بجلمان هذا الذي عايشناه في الصف الأول زمن دراستنا الابتدائية ، هو ابن أحد العمال الذين كانوا يشتغلون في ملهى ليلي يقع في باب السراي ، وكان يأتي إلى الصف ، بسبب بؤسه ، بلباسه الداخلي المترع بالقذارة والأوساخ ، وكان معلمنا يومها، رؤوف زين العابدين ، رحمه الله ، يطلب منه قبل البدء بالدرس الأول أن يقدم وصلته اليومية ، بمثابة السلام الملكي أو الجمهوري، الذي

لا يبدأ الدرس إلا بعد عزفه ... ماذا كان يقول وهو يتمايل ويحاول تقليد الراقصات اللواتي كان يشاهدهن في الملهى الليلي الذي كان يعمل فيه أبوه:

جك بم زلاطه جك بم زلاطه عيني ما تأخذ نوم جك بم زلاطه

ردّد الجميع: عليك رحمة الله أيها البائس المشرد ... وما لبث أحد الحاضرين أن قاطعنا متسائلا: وبعد ، هل من أموات آخرين ؟

أجاب المتحدث: أما أنا فهذا الذي املكه عنهم ، فلعل فيكم من يسرد علينا شيئا آخر عن مصائر الآخرين ...

قال أحدهم: ربما تذكرون أثنين من زملائنا في السادس الابتدائي ، غابت أسمائهم عن ذاكرتي ، ولكني لا زلت أذكر كيف أن أحدهما كان يجيد في تلاوته للقرآن الكريم تقليد القارئ المعروف أبو العينين الشعيشع والآخر يجيد تقليد عبد الفتاح الشعشاعي ، كلاهما توفي ، عليهما رحمة الله.

وقال ثالث: لا تنسوا زميلنا في الخامس الابتدائي ، يقظان وصفي ، الذي تعرض للاغتيال عند جسر سكة القطار ، بعد أن أصبح قاضيا بسبب نزاع بينه وبين شاب آخر من عائلة أخرى للزواج من إحدى الفتيات !!

وما لبث الدور أن جاء علي لكي أسرد على الموجودين حفنة من المتوفين من زملائي في الإعدادية: عدنان دحام المحامي ، عبد الغفار النوح المحامي ، عبد الجبار حسن المحامي الذي كانت تربطني به صداقة حميمة بسبب شرهنا في مطالعة الكتب الأدبية والحوارات الخصبة التي كانت تدور بيننا ... هاشم الجماس المدرس المتألق للغة العربية والذي كانت تربطني به هو الآخر علاقة حميمة وهو أول من نبهني إلى المتعة البالغة التي تحققها المطالعة في كتب نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم حيث رحت ألتهمها التهاما ... الدكتور محمد قاسم مصطفى ذو القلب الطيب الذي توفي بعد أن عمل أستاذا للأدب في كلية آداب جامعة الموصل التي مارست التدريس فيها ... ثم الزميل العزيز المحامي مؤيد عبد الله الدباغ الذي ربطتني به وبسخائه المعهود أقوى الصلات .. و ...

قاطعني أحد الموجودين قائلا: دعونا من الحديث عن الأموات ولنتحدث عن زملائنا الذين غادروا الموصل ولم يرجعوا ، وهم على ما أعتقد كثيرون هم الآخرون ...

قلنا بصوت واحد: من حرك ساكنا لزمه ، وعليك أنت أن تسرد لنا أسماء بعض هؤلاء ...

أجاب: عقيل الفخري ذو الشعر الأحمر الذي غادر إلى أمريكا ولا ندري شيئا عن مصيره هناك ... وهناء العمري الذي غادر هو الآخر إلى أمريكا ، وتحول في المراحل الأخيرة من حياته إلى داعية إسلامي يشار إليه بالبنان ... خالد الجادر الذي أختار كندا مقرا له ... خالد محمد رؤوف الذي غادر إلى انكلترا ... عاصم عبد الرزاق الحاج يونس الذي أختار هو الآخر

انكلترا مقرا له ... رياض زيدان الذي أحب فتاة أرمنية ما لبث أن تزوجها بسبب ما كان يملكه من جرأة، وأن يضع أباها أمام الأمر الواقع ، ثم بعد سنوات متطاولة يغادر العراق إلى عمان ... وابن خالته فوزي الذي غادر إلى انكلترا ولم يرجع هو الآخر ... ثم سعيد الزبّال الذي زاملناه في الابتدائية حيث كان معلمنا رؤوف زين العابدين يلقبه بسعيد جنحيت ... وكان هذا الطالب المسحوق معاشيا يعمل زبالا عبر العطل الصيفية لكي يعيل نفسه ويعين أسرته ... فلما قامت ثورة الموصل وأنقسم الناس إلى صفين: الشيوعيين، وخصومهم من القوميين والإسلاميين ، إذا بسعيد الزبال يكشف عن نفسه زعيما شيوعيا يقود جماهير باب لكش ومحلة الثلمة عبر التظاهرات الحاشدة ، ثم ما لبثنا أن عرفنا أن سعيد فرّ بجلده ، بعد اندحار المد الشيوعي ، ويمّم وجهه صوب الصين الشعبية ؟! ولا ندري إن كان لا يزال على قيد الحياة ، أم تناوشته الوفاة ..

قلت لهم: ها نحن قد استعدنا أسماء عدد من زملائنا ممن فارق بعضهم الحياة وفارق بعضهم الآخر البلد إلى أصقاع الدنيا ... والحق لقد كانت الهجرة إلى الخارج يومها تعد على أصابع اليدين ، أما اليوم حيث اجتاز العراق ولا يزال ، وبخاصة بعد احتلاله من قبل سفلة الخلق: القوات الأمريكية ، فإن الهجرة لا تعد بالمئات والألوف إنما بالملايين ... حيث أن هناك اليوم ما يزيد عن الخمسة ملايين عراقي مهجر ... والبقية تأتي ...

قال أحدهم: الحمد لله الذي مكننا من البقاء في ديارنا رغم جملة هائلة من الضغوط والتحديات التي ترغم الإنسان على الرحيل ...

وقال آخر: والحمد لله كذلك أن أبقانا أحياء حتى اللحظة الراهنة ، فلندع الراحلين عن الدنيا أو إلى الأصقاع البعيدة ولنتحدث عن (الموجود) كما يقول المثل ، وها نحن بعددنا الثلاثين يتاح لنا اللقاء بعد غياب عشرات السنين، بفضلك أنت ، وبجهدك المتواصل لتحقيق هذه اللمة المباركة بحمد الله !

وقلت له: شكرا جزيلا ... ولقد آن الأوان أن نستعيد التعارف بين بعضنا والآخر ، عبر هذه الفرصة التي أتاحتها لنا إرادة الله بأن مد في أعمارنا حتى هذه المرحلة المتقدمة التي تجاوزت الخامسة والسبعين ... أما عن حياتي وخبراتي ورحلتي مع الحياة والكلمة والأسفار فقد دونتها بتفاصيلها في سيرتي الذاتية التي خرجت على الناس بعنوان (أشهد أن لا إله إلا أنت: سيرة ذاتية) ، لم أكد أترك في إنجازها شاردة ولا واردة إلا دونتها، فحمداً لله ... ولكني أريد أن أسمع من كل واحد منكم رحلته مع الحياة ، والعمل ، والكدح المتواصل الذي كتب علينا جميعا اجتياز بحاره ووديانه ...

وبدأت رحلة التعارف بين الثلاثين زميلا ، كل يحكي قصة حياته بأفراحها وأحزانها ... بمصاعبها وتيسيراتها ، وكأنهم جميعا يؤكدون مصداقية الآية الكريمة **{ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً{٥} إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً }** وها هم الآن، وهم يتحركون بأعمارهم باتجاه الثمانين، يحسون حتى أعمق

نقطة من وجدانهم بأن رعاية الله سبحانه وتعالى قد كلأتهم وأن عليهم أن يكونوا أوفياء مع المنعم الوهاب !!

وعندما حان موعد صلاة المغرب نهضوا جميعا لتأدية الصلاة بشغف بالغ ، أولئك الذين بدأوا حياتهم وهم يضربون في يمها ذات اليمين وذات الشمال ... لم يكن معظمهم ملتزما بأداء الصلاة ... بل أن بعضهم ، زمن مراهقتهم وشبابهم ، فعل الأفاعيل ، شربا للخمر ... و ... و ... ولكنهم ما لبثوا أن فاءوا أخيرا إلى حظيرة الإيمان ... وهل ثمة حظيرة أسعد وأكثر توحدا نفسيا وائتمانا ذاتيا من حظيرة الإيمان هذه ؟!

ها قد عثرت عليك !

قررت يوما أن ألتقي شيخي الجليل ... أن أبحث عنه في كل مكان ... أن أسأل عن مكان وجوده الغادين والرائحين ... أن أبذل جهدي للعثور عليه ، فقد تملكني على حين غفلة شوق جارف للقائه ، لاحتضانه بحنان والتربيت على كتفيه ... لدفن وجهي في لحيته البيضاء التي تنثّ وضاءة ونورا ... لسكب دموعي قبالة عينيه التين تشعان ببريق يعجز الإنسان عن وصفه.

اتخذت قراري ، أن أعثر على الرجل مهما كلفني ذلك من جهد أو مشقة ... وإنها لرحلة صعبة غير مضمونة النتائج ، ولكن لا بد من المجازفة ... ذلك أن لقاء الشيخ هو الشفاء الوحيد لكل متاعبي وهمومي التي ناء بها ظهري ... لقاء الشيخ هو الإجابة على كل تساؤلاتي التي لاحقتني ، بإلحاحها السنين الطوال ... لقاء الشيخ هو الدواء الوحيد لما يحاصرني من أوجاع الروح ومتاعب الوجدان ...

إنني أتذكره جيدا بقامته الطويلة الفارعة، ووجهه النوراني الذي يشع بالصدق واليقين والذي تزول وتتلاشى لدى رؤيته كل مخاوف الإنسان ... كل قلقه وعذاباته ... كل همومه وأحزانه ... أنني أتذكره جيدا بما يختزنه في عقله الكبير من معرفة شاملة تجيب على كل سؤال ، ومن رؤية تعرف كيف تدير المنظور على مساحات الهم والغم ، والتعاسة والأحزان ، فتكنسها ... لكأنه يستمد مفردات سلوكه المستقيم كالصراط ، ومعرفته الممتدة إلى المساحات كلها ، من مصادر غير تلك التي ألفها الناس ... ألفها الكتاب والباحثون والمفكرون ... اعتادها الأدباء والمبدعون ... من أين لا أحد يدري ؟!

لقد رسم ملامح وجهه ، ببشاشته الإيمانية ، وضاءة روحه ، معرفته المتدفقة كسيل لا ينقطع ... تعامله الصادق مع مطالب هذا الدين ، فما لبث أن أصبح تعبيرا مدهشا عن نبضه ... عن خلجاته عن رغبته المؤكدة في إعادة صياغة الإنسان بما يريده الله ورسوله ، لا بما يرجوه الإنسان ...

وأتذكر، وأنا أهم بمغادرة بيتي للبدء برحلة البحث عن الشيخ ، ما كتبه مفكرو الغرب وفنانوه وفلاسفته ، فيما يمثل احد مطامحهم الكبيرة: الجنتلمان والسوبرمان ، وتنتابني رغبة جامحة في أن أقارن بين هذين النمطين وبين الشيخ الجليل ... وشتان !!

إنهما هناك يتلبسان الإنسان من الخارج لكي ما يلبثا أن يصيرا بمثابة ديكور جميل يتزين به هذا الرجل أو ذاك ... ديكور جميل لا يعكس أبداً التكوين الداخلي المترع بالثقوب والشروخ ... انه مجرد غطاء خارجي للتعتيم على الروح الخربة التي يفترسها القلق والدوار ... بل حتى الجنون والدجنة ، كما يقولون هم وكما انتهى بهم المطاف في المصحات العقلية ومستشفيات

المجانين ... أما هنا قبالة شيخي فإن الإنسان يتوحد مظهرا ومخبرا يصير كائناً فريدا في تجانس همومه ومكوناته ، ويلتقي الروح بالجسد في عناق مثير حيث ينطلقان في التعامل مع العالم بالنبض نفسه، بالخفقان المتوحد ذاته ...

قطعت جملة كبيرة من الأزقة والحارات ، اجتزت شوارع المدينة الرئيسية والفرعية ... طرقت أبواب عشرات الدور ومئاتها ، وأنا أسأل: أين ألتقي الشيخ ؟ كيف لي أن أراه والقي بين يديه كل متاعبي وهمومي ، وأتلقى إجاباته الشافية عن الأسئلة التي حيرتني وعذبتني طويلا ... ولا من جواب ...

قلت في نفسي: لعله انتقل إلى مدينة أخرى غير هذه التي عاش فيها السنين الطوال ولكن لمن أتوجه بالسؤال ؟ وكم من أبناء مدينتي يعرف الشيخ فضلا عن المكان الذي ألقى فيه رحاله به وفجأة تذكرت أحد أصدقائي الذين تلقوا معرفتهم على أيدي الشيخ قبل عشرين سنة أو ثلاثين فلعلي أعثر عنده على الجواب.

طرقت الباب، ولحسن حظي وجدته هو الذي يفتح الباب ويمد يديه لكي يحتضنني ويطبع على خدي سيلا من قبلاته الحارة: ما الذي جاء بك بعد هذا الغياب الطويل ؟

أجبته دون مقدمات: الشيخ الجليل ... لقد كلت قدماي وأنا أبحث عنه ، فلما لم أصل إلى نتيجة تذكرتك أيها الأخ العزيز فلعل عندك الجواب عن تساؤلي هذا ...

قال وهو يبتسم: على الخبير سقطت!

نظرت إليه بدهشة دون أن أدرك مغزى كلامه ، فاستطرد قائلا: لقد انتقل الرجل إلى بغداد، منذ أكثر من خمس سنوات ، وهو الآن يقطن في جانب الكرخ في دار متواضعة بجوار مديرية التربية العامة ...

– لا تدري كم أنا أشكرك ، فوالله لقد أزحت عن كاهلي جبلا من الهم ...

ودعته وانطلقت إلى هدفي، حيث ما لبثت عبر أربع ساعات أو خمس أن أوصلتني السيارة إلى داره ... فحمدا لله ...

وراح قلبي يخفق، ويزداد خفقانا وأنا أطرق الباب لكي ما البث أن أجدني قبالة الشيخ الجليل ... ارتميت عليه وأنا أجهش بالبكاء ... دفنت وجهي في لحيته البيضاء وأنا لا أدري ما أقول ، فإذا به يربت على كتفي ويحدق في وجهي الذي اعتصرته السنين قائلا: عبد الستار الصفار؟

– نعم أيها الشيخ ... أنا هو ...

– أهلا ومرحبا بك ، ولكن ما الذي جاء بك إلى هنا وأنت فيما أعتقد من سكنة الموصل؟

– الأسئلة التي عذبتني طويلا ... ناء بها كاهلي ، وانطوى لها ظهري ... جئتك لكي أحظى بالإجابة عنها ... لقد طفح الكيل أيها الشيخ الجليل ، وجاوز السيل الزبى !!

– هون عليك يا عبد الستار، فإن في بلدك من الشيوخ ما يمكن أن يمنحك الجواب ...

– ولكنهم جميعا لن يكونوا قادرين على إعطائي ما أريد ، إنك أنت الذي أقصد، فلعلك لا تخيب رجائي ...

– سل ما تشاء ، وسأجيبك قدر ما أعلم، وما لا يدرك كله لا يترك جله إن شاء الله ...

– أمتنا أيها الشيخ الجليل ومنذ عدة قرون تفاقمت عليها المصائب والويلات ، وكلما مرت السنين ازداد مطر السوء لكي يغرقها بالمزيد ... كل محاولات الإنقاذ باءت بالفشل ... كل الجهود المخلصة للخروج بها إلى شاطئ الأمان انتهت إلى الانكسار ... كل ما بذلته عشرات الجهات التي سعت لإيجاد الحل المناسب أعلنت عن عجزها عن مواصلة المسير؟ فلماذا ؟ هذا هو السؤال الذي أخذ يلح علي صباح مساء، يحاصرني ويمارس تدميري، دونما أن أجد أيما ثغرة يتسلل منها الضوء لكي يمنحني الجواب ...

راح الرجل ينصت باهتمام بالغ إلى حديثي، وهو يمسح على لحيته ، وما لبث أن قال: إن الإجابة على أسئلتك المحيرة هذه لا تحتاج إلى كبير عناء ... إن المسألة برمتها تنطلق من قاعدة واحدة لا ثاني لها ... إننا أمة لا تنصت جيدا لمطالب الخطاب القرآني والسنة النبوية ... أمة عرفت كيف تفرط بالفرصة الذهبية للنهوض والتقدم ، ولأن تكون لها مكانة متميزة بين الأمم ...

ولما وجدني أنصت إليه باهتمام بالغ أردف: لقد التحمت يوما بتلك المطالب ، وسرعان ما أصبحت سيدة العالم ، وصنعت حضارة متميزة ليست كالحضارات ، ولكن يديها ما لبثت أن أفلتت عما أراد منها كتاب الله وسنة رسوله (عليه أفضل الصلاة والسلام) فانحدرت إلى القرار، فكل المحاولات الخائبة التي شهدتها القرون الأخيرة، اللهم إلا قلة منها باءت بالخسران لأنها لم تضع يدها على المفتاح !

فعلى سبيل المثال لا الحصر، حذرنا كتاب الله من التنازع والاختلاف لأن مصير ذلك سيكون الفشل الذريع فقال: **{ ... وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ }**(الأنفال ، الآية ٤٦) فلم نلتفت لهذا التحذير. فمنذ عهود مبكرة أعلنت الحرب الضروس بين المسلمين بعضهم مع البعض الآخر، أنهار من الدماء، وشلت طاقات هائلة عن مواصلة البناء، وتمزقت الأمة شر ممزق ... منذ الفتنة الكبرى في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، والطريقة الموجعة التي اغتيل بها ، وطيلة عصر الصراع بين علي ومعاوية ، وعبر العصر الأموي حيث اشتعلت العصبية القبلية وأتت على تلك الدولة من القواعد ، وطيلة العصور العباسية والفاطمية والأيوبية والمملوكية ، حيث حدت السكاكين بين أولئك الذين كانوا في قمة السلطة وكان يجب أن يكونوا أمناء عليها ، فذبح بعضهم بعضا في سبيل تلبية الشهوة الشيطانية للحكم ... طيلة تلك الفترات والأمة الإسلامية تتنازع بشكل لا يرحم ، فيما قادها إلى هذا الهوان

الذي تتحدث عنه ، فلما جاء العصر الحديث وتشكلت الجماعات والفئات والأحزاب ، راح بعضها يدين البعض الآخر ويتهمه، بل يلاحقه ويقاتله ، فماذا تكون النتيجة يا تلميذي العزيز ؟!

وحذرنا رسولنا المعلم (عليه أفضل الصلاة والسلام) من أن نفترق ونتشظى إلى فرق وأحزاب ، وقال بأنه سيجيئ اليوم الذي ستفترق فيه الأمة إلى بضع وسبعين فرقة ، إحداها هي الناجية، لكننا لم نكترث لهذا التحذير وعانينا التمزق الذي ذبح مقدرات الأمة من الوريد إلى الوريد ...

ونبهنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى أنه سيأتي اليوم الذي ستتحول فيه الأمة – إن لم تأخذ بالأسباب – إلى قصعة يولم عليها المولمون من مشارق الأرض ومغاربها ، رغم كثرتها وانتشارها في الأرض ، فقال: (يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها) فلما سأله صحبه الكرام: (أو من قلت نحن يومئذ يا رسول الله)؟ أجاب: (بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل).

ونادانا كتاب الله بأعلى نبرة أن نتسارع بإعداد القوة لأعدائنا ، وضرب لنا مثلا بما فعله ذو القرنين عندما استعانت به الجماعات المستضعفة في الأرض والتي كانت يأجوج ومأجوج تغزوها باستمرار وتدمر أمنها ومصالحها وسلامها. فلم يقل لهم تعالوا نصلي ونصوم ونبتهل إلى الله سبحانه أن ينجيكم من غزو الغزاة ولكنه قال: **(مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا * آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا * فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا)** فها هي هذه الواقعة تنبهنا إلى أن استخدام اليد العاملة القوية ، والنار ، والحديد المذاب والنحاس السائل من أجل أن نحمي وجودنا في الأرض، فهل انتبهنا إلى هذا ؟!

إن كتاب الله في آخر سورة الحديد ينبهنا مرة أخرى، وثانية وثالثة، إلى أننا ما لم نتحصن بالقوة ، ونبني بها بالوقت نفسه مستلزمات حضارتنا السلمية ، فلم يكون لنا وجود في هذا العالم **(لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ)** ... ولن نقدر على حماية الموروث الديني في هذا العالم الذي آلت إليه مقدراته إلينا إلا بتوظيف الحديد ... وعندما يتحدث القرآن عن الحديد فكأنه يتحدث عن خامات الأرض كلها التي يتحتم علينا أن نشمر عن ساعد الجد لاستخراجها وتوظيفها، ولكننا لكسلنا وعجزنا تركنا ذلك للخصوم، بما في ذلك سلاح النفط الذي كان بمقدورنا أن نستخرجه بأيدينا وأظافرنا ، فإذا بنا نسلم مقدراته إلى الشركات الأجنبية والدول الكبرى التي تقف وراءها فتسومنا بسلاحنا نفسه سوء العذاب.

باختصار شديد ، ولا أريد أن أطيل عليك فإننا بالرجوع إلى كتاب الله ، والتمعن في آياته البينات فإننا نجده قد وضع أمتنا في قلب المثلث الحضاري بمبادئ التسخير والاستخلاف

والاستعمار (بدلالته اللغوية لا الاصطلاحية) (هو أنشأكم من الأرض وأستعمركم فيها). فنحن أمة قد سخر لنا هذا العالم الذي استخلفنا عليه لكي نبنيه ونعمره ونجعله بيئة صالحة لعبادة الله، ليس بالمفهوم اللغوي الشعائري وإنما بالمفهوم الحضاري حيث تصير كل فاعلية وعبادة يتقرب بها الإنسان إلى الله انجازا حضاريا ... فهل التفتنا إلى نسيج هذا المثلث وحافظنا على مطالبه المدهشة في تكوين البيئة الحضارية المبدعة ؟ ألم ينادنا رسول الله قائلا: **(إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فاستطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليغرسها فله بذلك أجرا)؟** بمعنى أن علينا إذا أردنا أن تكون لنا خرائط متميزة في هذا العالم، أن نواصل العمل ، وإعمار الحياة ، وزراعتها حتى لحظة النفخ في الصور ... فهل التفتنا إلى هذا الخطاب ؟

نحن أمة، يا تلميذي العزيز، اشتهرت بتضييع الفرص النادرة، بهدرها ... ولو لا ذلك لكانت الآن سيدة الأمم ، كما كانت يوم أمسكت جيدا بالفرص التي وهبها الله إياها. إنني أذكرك على سبيل المثال بفرصة خطبة الجمعة ، وهي خطاب إعلامي استكمل كل أسباب النجاح: حيث التغطية الزمنية والتغطية المكانية ، والحضور الجماهيري والإنصات ... وكان يمكن لهذه الفرصة التي تغطي العالم من أقصاه إلى أقصاه ، أن تفعل الأفاعيل، فماذا فعلنا بها نحن ؟ لا شيء إلا من رحم ربك..

الغربيون اليوم يا تلميذي العزيز يتباهون على الأمم الأخرى بنظافة شوارعهم ، بسلوكهم الذي يجذب الآخرين ، ببسمتهم الحانية ، بالكلمة الطيبة المعلقة على ألسنتهم ، وماذا علمنا رسول الله، الم يقل لنا **(تبسمك في وجه أخيك صدقة)** و**(الكلمة الطيبة صدقة)** وطالبنا **(بإماطة الأذى عن طريق الناس)** و**(بإفشاء السلام)** ... والآن فإنك لا تكاد تجد من يرد عليك التحية بأحسن منها، ولا تتلقى البشاشة المطلوبة ممن تسلم عليهم ، ولا تعثر على كلمة واحدة طيبة تخرج من بين شفاههم ... لقد سادت الكراهية والنفور والتيبس علاقات الناس ، وفرطوا بالفرص الذهبية التي منحهم إياها هذا الدين.

فكيف تريد لهذه الأمة أن تنهض من كبوتها، رغم ألف محاولة ومحاولة ؟ باختصار شديد، وأنت قادم من سفر بعيد ، تعاني من التعب والإرهاق فلا أريد أن أطيل عليك ، وهناك من الشواهد الأخرى عشرات ومئات ، فما لم ترجع الأمة بقياداتها ثانية للالتحام بكتاب الله وسنة نبيه ما لم تضع في حسبانها مطالب الفقه الحضاري الذي يرفع الأمم أو يخفضها ، وتتحقق بمقولاته الحادة كالسكين ، فلسوف نظل نتخبط كالأسماك التي تخرج من بيئتها ، تبحث عن متنفس لها للاستمرار على الحياة ، ولا من مجيب ...

قلت له وقد أخذتني مقولاته المبدعة وأدهشني تدفقه في الحديث الذي وضع فيه يديه على الجرح العميق وعلى سبيل الخروج بالأمة إلى فضاء الخلاص ، وعودتها ثانية إلى ما كانت عليه يوما من فاعلية وعطاء وإبداع ... فلم أشأ أن ألح عليه بالمزيد، وإن كنت أطمح بذلك ، لذلك

قلت في نفسي: لعلي أحظى منه بجلسة أخرى يوم غد لكي أرجع إلى بلدي فأبشر الناس بما فتح الله به على لسان هذا الشيخ الجليل ...

وهممت لكي أنهض مغادرا الدار، وإذا به يمسك من يدي وهو يقول والابتسامة العريضة تغطي وجهه:

– قبل أن تذوق بأميتي التي طالما تحدث بها الناس في الموصل ؟

أجبته دهشا البامية ؟

قال: نعم ، البامية ولسوف تأكل معها أصابيعك !

قلت: ولكن..

أجاب محاولا أن يحسم الموضوع ... سنتغدى معا إن شاء الله ، ولعلك تسأل ما الذي علمني طبخ البامية ؟

ونهض قائما كي يلقي نظرة على القدر الذي تفوح رائحته الشهية وعاد لكي يقول: إنك تعلم أني لم أتزوج لأنني نذرت حياتي للعلم والمعرفة ، وقد دفعتني الحاجة إلى أن أتعلم الطهي ، ليس هذا فحسب ولكن أن أبدع فيها ...

قلت في نفسي حتى هذه أيها الشيخ الجليل ...

العملاقة !!

يا لغرابة الأحلام .. إنها الحالة النفسية الوحيدة التي تحتمل ألف وجه ووجه للتفسير ... ولا بد لمن يحاول أن يقع على السر البعيد للحلم أن يدير كاميرته على المنظور، ليس مرة أو مرتين أو ثلاثا ، وإنما عشرات المرات بحثا عن المطلوب ... والمطلوب في معظم الأحيان يتأبّى على أن يكشف عن نفسه.. انه يتلفع بعشرات الأغطية من أجل تضليل الناس..

إن ابن سيرين والنابلسي وفرويد ويونغ وإدلر وبافلوف.. وغيرهم ، قاموا بمحاولات لوضع مفاتيح الرؤى والأحلام بيد الإنسان ، ولكنهم هل أصابوا كبد الحقيقة ؟ أم أنهم قدموا ما قدموا كجهد تجريبي.. كاختبار .. قد يصدق وقد لا يصدق.

ويظل الحلم من قبلهم ومن بعدهم عصياً على سبر غوره العميق.. لكنه –على أية حال– قد يعطي إشارات .. شفرات .. رموزاً مكثفة .. قد تعين على التفسير ، وقد تطيش بها السهام !!

أحيانا يدعو الحلم إلى التوجس والريبة والشك والخوف من المجهول القادم الذي طالما رفع سكينه الحادة بمواجهة الإنسان .. أحيانا أخرى يدفعه إلى الحزن الثقيل والبكاء ... وأحيانا ثالثة – ويا للمفارقة – قد يقود الإنسان إلى الضحك العميق، حتى بعد أن يستيقظ ويحاول أن يقص حلمه على الآخرين، فيسوقهم هم أيضا إلى الإغراق في الضحك، حتى يستلقوا على قفاهم ..

أحيانا قد يكشف الحلم عن رغبة عميقة في النفس فيلبي طلباتها ، ويشعر الإنسان عندها بالامتنان والامتلاء.. وأحيانا أخرى قد يعري خبايا المستقبل القريب والبعيد فيجسدها ويضعها صريحة مكشوفة وجها لوجه قبالة الإنسان.

ما من مراوغ في الخبرات البشرية كالحلم.. إنه يعرف كيف يطل بألف وجه ووجه ، وكلما حاول إنسان ما الإمساك بما يريد ، أفلت من بين يديه وفر هاربا لكي يسوقه إلى ما يشبه لعبة (الاستغماية) التي يجهد اللاعبون في ركضهم وراء المطلوب للإمساك به ، وقد لا يعثرون في نهاية الأمر عليه ...

دعونا من هذا كله ، وتعالوا معي لمشاركتي في هذا الحلم الطريف الذي ظللت لسنوات عديدة أقصه على أصدقائي ، فيغرقون في الضحك ... ما الذي حدث ؟!

في يوم ما وجدتني أقف مع مجموعة من الناس على (تل قوينجق) الذي يقع في الجهة الشرقية من مدينتي (الموصل) ويطل على جسر السويس الذي يربط بين ضفتي نهر (الخوصر) .. كانت تقف قبالتنا على التل نفسه ، طائرة هائلة في حجمها الكبير ... الكبير ... الذي لم نشهد له مثيلا في حياتنا..

سألت أحدهم مترددا: ما هذا الكائن الغريب ؟

أجابني بثقة أثارت دهشتي: إنها العملاقة !!

ولما رأى في وجهي علائم عدم الاقتناع بما قال ، أردف: إنها الطائرة التي ستنقلنا عبر نهر دجلة ، وأشار بيده إلى ضفاف النهر القريب، صوب الضفة الأخرى ..

قلت له ولا تزال ملامح الدهشة تغمر وجهي: ولكن!!

أجاب بقدر كبير من النزق وكأنه يريد أن أكف عن تساؤلاتي:

– هذه هي الطائرة التي ستنقلنا إلى الضفة الأخرى ، ولك الحرية في أن لا تركب معنا..

وجدتني مرغما على التزام الصمت وأنا أحدق بشيء من الخوف إلى هذا الكائن الغريب ذي المعدن الأسود ... والذي يكاد يغطي سطح تل قوينجق من بدئه حتى منتهاه ... وأنا أقول في نفسي: لا بد مما ليس منه بد، فلأركبها مع الراكبين ، ولتكن مشيئة الله!!

وسرعان ما بدأت الطائرة تزمجر ، وكأن عشرات ومئات من الأسود تصرخ دفعة واحدة ، وراحت تتمايل ذات اليمين وذات الشمال ، إيذانا ببدء الرحلة عبر النهر.. وظللت وسط حالة مكثفة من الرعب ، أتساءل: علام هذا كله وعبور النهر لا يتطلب سوى دقائق معدودات ؟!

وفجأة ، لا أدري لماذا، خطرت ببالي كشوف العالم الفيزيائي المعروف (اينشتين) عن الزمن الكوني والزمن الأرضي.. عن ضغط الزمن بحيث تصبح آلاف السنين الأرضية بمثابة دقيقة بل لحظة واحدة من حسابات الزمن الكوني.. وقلت في نفسي: لعلها تجربة أو محاولة أخرى في هذا السياق ... ثم ما لبثت أن أبعدت عن ذهني هذا الخاطر العجيب الذي لا مبرر له على الإطلاق وعدت إلى حالة الرعب التي أمسكت بتلابيبي وأنا أتقدم بوجل وتوجس صوب مدرج العملاقة ذي الدرجات الخمسين أو السبعين.. حتى إذا وجدتني داخل الطائرة لم ألحظ سوى قلة من الركاب لا تكاد تغطي بعض مقاعدها، بينما تركت مئات المقاعد الأخرى شاغرة ، الأمر الذي زاد من خوفي ... ومن أجل أن أدفع الخوف إلى زاوية بعيدة عن نفسي قلت: ما هي سوى دقائق وتكون الطائرة قد اجتازت النهر وحطت على ضفته الأخرى ...

وبدأت الرحلة ، بعد أن أثارت الطائرة لدى انطلاقها عاصفة من الغبار غطى على تل قوينجق وكل الجهات المحيطة به ... راحت وهي تحلق في الفضاء تخرج أصواتاً لم أسمع بمثلها في حياتي ... وما لبثت الدقائق أن مرت كخطف الشهاب، أعقبتها ساعات طويلة ، طويلة، والطائرة تمخر بنا نهر دجلة الذي لا يتجاوز عرضه عشرات الأمتار ، ثم ما لبثت أن حطت بنا على سطح مقهى الأعرجي الذي يطل على الحافة الغربية لنهر دجلة ، والذي كنا لسنوات نجتمع فيه ، نحن مجموعة من الأصدقاء، نتبادل الأحاديث ، ونطالع الكتب ، ونتحدث في شؤون السياسة ...

كانت دهشة الركاب جميعا يصعب وصفها، وكأن لسان كل واحد منهم يقول: أبعد أكثر من عشر ساعات من التحليق في واحدة من أكبر الطائرات في العالم على الإطلاق ، نجد أنفسنا وقد اجتزنا النهر إلى ضفته الأخرى ... ما هذا العبث ؟ أبعد رحلة الخوف والرعب تلك لم

نكن قد فعلنا سوى أن اجتزنا النهر الذي كان بمقدور أي منا اجتيازه سباحة في أقل من نصف ساعة ؟!

غادر بعضنا سطح مقهى الأعرجي عائدا إلى بيته بوجه مزيج من الخوف والقلق والتساؤل عن هذا الذي عاناه عبر ليلة بطولها ... بينما دلفنا نحن مجموعة من الأصدقاء إلى داخل صالة الأعرجي ومنها إلى شرفتها الرائعة المطلة على النهر ، والمشرفة على جمال الغابات الكثيفة المنتشرة على ضفته المقابلة ...

وما لبث النقاش الحاد أن احتدم بيننا، كل منا يسعى جاهدا لتفسير هذه الواقعة المبهظة التي اجتزناها ... كل منا يحاول أن يكشف للآخرين مدى قدرته على تفسير هذا الحلم الذي سرعان ما تبين لنا جميعا أنه مجرد حلم لا يقوم على أي أساس من الحقيقة ، ورحنا نتبارى في تقديم تفاسيرنا بحثا عن المغزى بينما راح آخرون يتعاملون مع الموضوع بقدر من اللاأباليه قائلين أنه مجرد حلم ... أضغاث أحلام ، وليس من الضروري أن ينطوي على أي مغزى على الإطلاق.

ظللت أنا صامتا أصغي لنقاشهم دون أن أنطق بشيء ، لقد كنت والحق يقال مأخوذا بغرابة الحلم ... بالساعات الطوال التي لم تتمخض سوى عن قطع مسافة لا تتجاوز الكيلو متر الواحد وبضخامة الطائرة السوداء المسماة بالعملاقة !

وما لبثت آثار الكابوس أن أفلتت قبضتها التي أمسكت بخناقي ، فوجدتني منساقا لأن أدلي بدلوي في النقاش المحتدم بين الأصدقاء ... قلت لهم: ليس عبثا أن تكون نقطة انطلاقنا من تل قوينجق هذا الذي أحتوى في أعماقه واحدا من أضخم القصور الإمبراطورية في التاريخ ... قصر الملك الآشوري العظيم: آشور بانيبال ، ومكتبته العظمى المدوّنة على رقم الطين ، والتي تضمنت معارف الأولين قاطبة في سائر العلوم ... والتي تعتبر أول مكتبة مركزية في التاريخ.

قالوا بصوت واحد: وماذا بعد ؟

واصلت حديثي: وليس عبثا أن تنتظرنا هناك واحدة من أكبر الطائرات في العالم.. بل أكبرها على الإطلاق.. إنها العملاقة ذات اللون الأسود المخيف..

أجابوا وهم يتغامزون وتعكس وجوههم قدرا من السخرية المبطنة: ثم ماذا ؟

قلت: وليس عبثا أن تتحقق في واقعة العبور العجيبة تلك، واحدة من أشد المفارقات التي عرفناها في حياتنا.. أن تنطلق بنا العملاقة ، ثم بعد ساعات متطاولة تحط بنا على سطح هذا المقهى.. ما الذي يدل عليه هذا سوى أنه المفارقة بين ما كنا عليه يوما من رقي وعظمة جعلتنا سادة العالم وأبناء أعظم إمبراطورية يومها ... وما نحن عليه اليوم من تضاؤل وتخلف وانكماش!!

قالوا، وهم لا زالوا يتغامزون: لقد ذهبت بعيدا في تفسيرك للحلم.. فما العلاقة بين رحلتنا البائسة تلك وبين الفارق بين عظم العصر الآشوري وبين ما نحن عليه الآن ؟!

أجبتهم وأنا أحاول أن أتمالك نفسي وأضبط أعصابي كي لا تفلت مني كلمة جارحة قد تكدر الموقف وربما تقودنا إلى القطيعة التي كنت أخشاها وأحاذرها ما وسعني الجهد: إن لمكان الحلم مغزاه أيها الأصدقاء ، وإلا لماذا لم تنطلق بنا الطائرة العملاقة تلك من أي مكان آخر غير تل قوينجق الآشوري ؟ وإن للزمان مغزاه هو الآخر: فما الذي تعنيه رحلة الساعات العشر التي لم نقطع فيها سوى بضع مئات من الأمتار؟

قالوا قد يكون للمكان مغزاه ، ولكن أين مغزى الزمن في هذه الرحلة المنكودة ؟ يبدو أنك تريد أن تكون (أينشتين) آخر يسعى إلى تفسير الواقعة الزمنية بشبكة من معادلاته المعقدة ؟!

قلت لهم أبداً .. ومن أنا حتى أكون كذلك الفيزيائي الكبير الذي أحدث انقلابا هائلا في تقييم البعد الزمني للكون ؟ وإنما هي اجتهادات في تفسير هذا الحلم ، وفك طلاسمه ، لعلنا نقع على المطلوب فنرتاح ..

أجابوا بنفاد صبر: إذن قل لنا وبسرعة ، ما الذي يعنيه البعد الزمني في رحلتك هذه ، قلت وأنا أتكلف وضع ابتسامة مبتسرة على وجهي من أجل جعل مناقشتنا هذه ودية قدر الإمكان ... فلا تدفعنا إلى مالا تحمد عقباه.. إن الساعات العشر التي اجتزناها في الأجواء ما هي في الحقيقة إلا دقائق ولحظات .. فللأحلام كما تعلمون لغتها الخاصة ولها رموزها وشفراتها ... على آية حال لقد أرادت العملاقة أن تقول لنا بأن حياتنا الدنيا هذه لا تعدو أن تكون لحظات من عمر الزمن ... ولكننا لغفلتنا وجهلنا نتصورها طويلة.. طويلة.. حتى أن بعضنا يعتقد أننا خلقنا لكي لا نموت ... ومن ثم نشهد هذا الصراع والتكالب على مكاسب الحياة الدنيا الرخيصة هذه ، حتى والإنسان يصل إلى أرذل العمر ، فهو يظل يكافح من أجل تنمية ثروته معتقدا أن الموت بعيد عنه ، وأن عليه مواصلة الركض اللانهائي من أجل جمع مزيد من المال ...

نظر بعضهم إلى بعض، وقد زالت ملامح السخرية من وجوههم ولم يقولوا شيئا ...

واصلت حديثي: فإذا أدرنا بالكاميرا أيها الأصدقاء صوب اليوم الآخر ... بل قبل اليوم الآخر ... صوب الملأ الأعلى فماذا نرى ؟ لندع كتاب الله المدهش يحدثنا: **{... وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ }**(الحج ، الآية ٤٧) **{تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ }**(المعارج ، الآية ٤) .. أتعرفون كم يساوي اليوم الكوني هذا ؟ إذا أخذنا بالمنطوق القرآني: ثمانية عشر مليونا ومائتين وخمسين يوما أرضيا !!

أما في اليوم الآخر فيدور الحوار بين الناس **{... قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ... }**(البقرة ، الآية ٢٥٩) !!

(إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا..) {... يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ }(يونس، الآية ٤٥) تشبيه مؤثر لانصرام الحياة الدنيا ، وضيقها وسرعتها بـ (حفلة تعارف) لا تستغرق سوى ساعة أو ساعتين ، ثم ينفض المدعوون وقد نسي معظمهم حتى أسماء من تعرفوا عليهم عبر تلك الحفلة !!

قال أحدهم: نحن جميعا نسلم بهذه الرؤية القرآنية المدهشة للزمن الكوني والتي تأتي مطابقة لكشوفات اينشتين في نسبيته المعروفة، فكأنما تجيء مصداقا للآية الكريمة (**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ؟) ولكن ربط هذه الحقائق القرآنية بحلم يتميز بالغرابة ، ولا يعدو أن يكون أضغاثا، أمر من الصعوبة بمكان التسليم به ...

أجبت وقد أحسست بأنني قد ضيق علي الحصار: ليس على سبيل القطع ولكن على سبيل الاجتهاد ...

قال أحدهم فيما جعلني أتراجع عن إصراري: لا اجتهاد في موضع النص ... لقد ذهبت بعيدا في ربطك بين معطيات هذا الحلم الغريب في الزمن والمكان وبين الحقائق القرآنية.. فهل هذا يجوز ؟!

قلت وأنا أحس بهزيمتي إزاء منطق الصديق: إنك على حق ... بل إنكم جميعا وأنتم ترسمون ملامح السخرية على وجوهكم محقين أيضا.. وأنني إذ أعتذر لكم عن ذهابي بعيدا في تفسير الحلم ... أشعر كأنني قد أزحت عن نفسي جبلا من الهم ...

إن التشبث بالباطل أمرا يصعب تحمله على ذوي النفوس الحساسة، وها أنا ذا من أجل أن أخرج من الثقب الذي أدخلت نفسي فيه، أعتذر لكم جميعا عن خطأي ...

قالوا جميعا وهم ينهضون واقفين ويهمون بالمغادرة ... ومن أجل مكافأتك على اعترافك الجريء هذا أنت اليوم مدعو لتناول وجبة الغداء على حسابنا في مطعم (المنقل) ...

أجبتهم دون أن أتزحزح عن مكاني: أنني أعتذر عن قبول دعوتكم، فأنا بانتظار عودة العملاقة لكي تقلني ثانية إلى الجانب الآخر من النهر !!

لقطات قصصية من زمن الطفولة السعيد

(١)

مساء يدخل جدك الدار وهو يحمل كعادته كل يوم منديلا مترعا بالسكاكر عيناك تتعلقان بيديه ... لم تكن قد تجاوزت الثالثة من العمر، تريد حصتك مما حملته يداه، فإذا به ينكب عليك لكي يطبع على خدك قبلة حارة ثم يسلمك حصتك التي ما لبثت أن دفعت بها مرة واحدة إلى جوفك !!

بعدها بأيام ... أيام قلائل فوجئت ، وأنت تجلس في إحدى الزوايا تعبث بأشيائك ، أن الدار ملئ بالرائحين والغادين ، وأن عيون رجالها ونسائها ملئ بالدموع ... لم تكن تدرك معنى الموت ... معنى أن يغيب الذين كنت تنتظر عودتهم مساء كل يوم ، فلا يجيئون أبدا ... من أجل ذلك لم تكترث لهذا الذي شهدته الدار رغم الدهشة التي حاصرتك الأيام الطوال ...

بعدها بعام واحد أو عامين، حدث ما لم يكن في الحسبان ، وإن كنت أنت لا تدري ما الذي يحدث ... أيقظوك وأخاك الكبير من نومكما في سطح الدار ونزلوا بكما إلى الفناء ... وهناك فوجئت بجمع كبير من الغادين والرائحين وهم يذرفون الدموع ، ولمحت أمك تجلس عند حافة درج السرداب وقد أصفر وجهها وأصبح بلون الشيح ، وكان متورما هو الآخر من كثرة البكاء ... وجاء عمك إسماعيل وهو يصرخ ويضرب بكفه على وجهه: سناء! سناء! ألا تردين علي؟!

كان يأخذها صبيحة كل يوم إلى محله في شارع غازي ، ويعود بها ظهرا إلى البيت ... لقد ملأت سناء شغاف قلبه بجمالها الخارق، حيث لم تكن تجاوزت السنوات الثلاث من العمر، وكانت تملك عينين نادرتين بألوانها المتداخلة بين الأخضر والبني والأصفر ... تسحر بها كل من ينظر إليها ، وها هو ذا عمك قد فجع بأعز الناس على قلبه يجيء صارخا: ردوا علي سناء ... أسألكم بالله أن تردوها علي !!

لم تكترث لهذا كله، ونادتك أمك لكي تسلمك اليومية التي أعتدت أنت وأخوك أن تتسلماها منها: بضعة فلوس ، قائلة لأخيك الكبير اذهبا إلى بيت جدكما ولا ترجعا إلا بعد أن تغيب الشمس ... وسألت أخاك وأنت تتسلم منه حصتك من النقود ، في طريقكما إلى محمد سعيد البقال: أليست هي التي ماتت ؟

نظر إليك بشزر وأردف قائلا: ومن الذي سلمك النقود غير أمك ؟!

عادك خالك يحيى البزاز من رحلة له إلى الشام ولبنان ، وهو يكشف عن هداياه في فناء دار جدك ... استبطأ مجيء حبيبته سناء، فتساءل عن السبب ... أجابوه: أنها لا تزال نائمة على السطح ... كانت الساعة قد جاوزت العاشرة صباحا ويستحيل أن يبقى أحد في السطح

تحت لفح الشمس حتى ذلك الوقت، فتوجس في نفسه خيفة وأعاد السؤال: أين سناء ؟ حينذاك فقط لم يتمالكوا أنفسهم من الانفجار في البكاء ، وصرخ خالك: وكيف تسمحون لها بالموت قبل أن أجيء فأسلمها اللعبة الفرنجية الرائعة التي اشتريتها لها من هناك ... كيف؟ حينذاك وأنت تلحظ وجه خالك يتورم من كثرة البكاء ، عرفت معنى الحزن ، اكتويت بجمراته ، لسعتك ويلاته الحادة كالسكين ...

من أجل ذلك رحت تعزي نفسك بأن روح شقيقتك هي الآن في حوامل الطيور والفراشات الجميلة، وأنها لابد وأن تحوم في فضاء مقبرة جدك القريبة من الدار ... فما يكون منك ألا أن تهمس في أذن ابن خالتك رضوان البزاز بأن عليكما أن تذهبا معا صباح كل يوم إلى المقبرة إياها بحثا عن سناء ... ولكن دون جدوى !

(٢)

تدفقت على الدار أحزان من نمط آخر ... كنت قد كبرت قليلا وأصبحت تعي ما يدور حولك: أمك التي كان مرض (المخّبثْ) يحاصرها بين الحين والحين وهي مستلقية على الفراش بوجه مصفر وعينين غائمتين ، وأخوك الأكبر يجلس عند رأسها ، يذرف الدموع بصمت ، وكأنه يحرسها مما يمكن أن يحل بها ، ويدعو الله سبحانه وتعالى أن يحميها من كل سوء ... والعربة التي يجرها الحصان تجيء بين يوم وآخر لكي تقلها وأبوك إلى دار (المعزّم) سيد توحي وترجع وقد خف عنها بعض العناء ... أبوك الذي كان يحاصره مرض (الحصر) أو الاكتئاب النفسي المركز، ويستمر على حصاره الأشهر الطوال حيث يتغضن وجهه وتزول منه كل ملامحه المعهودة من الأريحية والبشاشة والرضا ... وأنت وأفراد الأسرة تعدون الدقائق والساعات ، منتظرين اللحظة التي سيفك فيها الحصر خناقه عن الوالد ، ولن يتأتى ذلك ألا بعد مرور شهرين أو ثلاثة ، حيث تعتصر الدار كآبة تمسك بخناق الجميع ، وحينذاك فقط يرجعون إلى فرحهم الضائع وسعادتهم المفقودة ...

وكان عمك الحاج يحيى يأتي عصر كل يوم لكي يأخذ والدك في جولة عبر المدينة ، أو رحلة إلى حمام العليل في الجهات الجنوبية منها عله يخرجه مما يعاني منه من ضيق ، ولكن دون جدوى ...

في يوم ما تملكتك فرحة طاغية، ما الذي حدث ؟ لقد قرر الوالد استجابة لنصيحة أحد الأطباء تغيير مكان السكن ، والانتقال إلى دار جديدة عند الأطراف الشمالية القصوى للمدينة ، حيث تم استئجار دار حديثه عهد بالبناء تابعة لأبن عم والدتك: زهدي النقيب ، وملاصقتة لداره قريبا من المستشفى الملكي والبراري الرائعة التي تحيط به من كل مكان ...

كان عاما رائعا ذلك الذي قضيناه هناك، حتى إذا أوشك على الانتهاء قفلنا عائدين إلى دارنا في محلة جامع خزام ، والذي كان يتميز بأناقته ، حيث أشرف على بنائه صاحبه الذي أشتراه والدك منه وهو مهندس معماري ملأ جدرانه باللوحات الزيتية الرائعة ، وعرف كيف يوظف مساحته الصغيرة فيما جعله دارا نموذجية بحق.

ويوما فوجئت بوالدك وهو يحمل بيده آلة حادة يبمّم بها صوب الوجه الخارجي للباب الأنيق حيث صمم في أعلاه رأس إنسان ، ويبذل جهده لإزالة الرأس من مكانه ... يبدو أنه بحسه الديني العميق رأى حرمة ذلك الرأس المجسد عند مدخل البيت ، فما كان منه إلا أن يزيله رغم أنه مارس قدرا من التشويه لجمالية الباب !!

والأحزان تتوالى فها هو ذا أخوك الأصغر نبيل، وهو يجلس على عتبة الدار، كعادته، يتلقى ضربة قاسية من أحدى الدراجات الهوائية التي فقد صاحبها السيطرة عليها، فيغيب عن الوعي الساعات الطوال، وأنت والأهل كافة تحسبون ألف حساب لاحتمال أن يكون قد أصيب برجة دماغية قد تقوده إلى الدمار ... لكنه بحمد الله سرعان ما يسترجع وعيه وتواصله مع الآخرين، بعد ساعتين قاسيتين من الترقب والانتظار.

(٣)

يومها وجدت شهيتك تنفتح فجأة على المطالعة والقراءة ، فما أن تضع يدك على هذه القصة أو تلك ، وعلى هذه المجلة أو تلك حتى تلتهما التهاما ، فتمضي لقراءتها من الغلاف إلى الغلاف ، بفرح وغبطة واندماج كامل بما تنطوي عليه من قصص وتعليقات وأخبار ...

في البداية كانت أمك ، وأنت وأخوك وأبوك تتحلقون على نار المنقل المشتعلة في ليالي الشتاء الماطرة ، وصوت المياه النازلة من السماء ترتطم بالسطوح المعدنية التي تغطي جوانب النوافذ والسقوف ، فتزيدنا متعة واندماجا، فيما تروح الوالدة تقرأ علينا من قصص كامل الكيلاني، ما يكاد يجعلنا نندمج مع شخوصها ، فنفرح ونحزن ، ونضحك ونبكي ، ونشعر أننا نغيب عن الدنيا ...

ويزيدنا متعة ما كان أبوك يسخو على العائلة بمشترياته اليومية وهو عائد من السوق.. حيث نروح نلتهم بشهية السجقات وراحة الحلقوم وحلاوة جوز الهند ، فضلا عن صنوف الفاكهة والجرزات والشاه بلوط هذا أنه كان لسخائه المعهود ، يؤجر لنا بين الحين والحين عربة من تلك التي تجرها الخيول ، وكانت يومها هي الوسيلة السائدة في الموصل للتنقل عبر الأماكن المتباعدة ... فتجول بنا لساعة أو لساعتين عبر شوارع المدينة ، وفي أطرافها البعيدة ونرجع وقد قضينا أسعد الأوقات ....

بعدها رحت أنت تلاحق بنفسك القصص والروايات، وتطالع الصحف والمجلات بشغف يصعب وصفه، بل رحت تخصص من يومياتك تلك التي تتلقاها عن الأب، شيئا لشراء هذه القصة والمجلة أو تلك، ولاستعارة هذه الرواية أو تلك، مما كان معلموكم في الابتدائية يعرضون عليكم استعارتها أيام الخميس، لقاء أربعة فلوس!!

(٤)

دخلت المدرسة الابتدائية ولم يتجاوز عمرك السنوات الخمس إلا قليلا ، وقال مدير المدرسة بشير الدليمي لصديقه الحميم والدك: أنني سأوافق على قبوله، لكنك في المقابل يجب أن توافق على قضائه سنتين في الصف الأول ، فلما سأله الوالد عن السبب أجابه المدير: لأن السنة السادسة من العمر هي السنة المتفق عليها بالمعايير التربوية في العالم كله للبدء في الدراسة ، ولأن قضاء سنتين في الصف الأول سوف يساهم في تقوية (سواده) أي في قدرته على الكتابة (!!) ولقد كانت تلك السنة الأولى والأخيرة في حياتك التي ذقت فيها طعم الرسوب!!

لا زلت تذكر، كما لو كان يحدث أمامك اللحظة ما كان يجري من وقائع وأحداث في المدرسة الابتدائية ... وأنت تردد في نفسك يا لتلك الأيام السعيدة !

معلم الصف الأول، رؤوف زين العابدين، الذي كان يتولى تدريسنا المواد المقررة كافة ، كيف أنه ما أن يبدأ الدرس الأول إلا وهو يمارس اثنتين من هواياته المفضلة: ينادي على إسماعيل ، مراقب الصف فيسلمه فلسين ويطلب منه أن يقفز إلى البقال المجاور، فيشتري له بهما شيئا من قمر الدين الذي يروح يمصمصه قبالة لعابنا الذي يسيل تشهيا لهذا الذي يتناوله الأستاذ ، ثم ما يلبث أن يطلب من الطالب الكادح جلمان الذي كان أبوه يعمل خادما في أحد الملاهي الليلية في باب السراي ، أن ينشد مقطوعته اليومية التي كانت أشبه بالسلام الملكي أو الجمهوري التي لا يبدأ الدرس إلا بعد أدائها ، فينهض هذا الطالب ، ويهز وسطه على طريقة الراقصات اللواتي تعلم منهن فن الرقص بتردده على الملهى الذي يعمل فيه أبوه، ثم ينشد:

جك بم زلاطه

جك بم زلاطه

عيني ما تأخذ نوم

جك بم زلاطه

ويبدأ الدرس، ولكن بعد مرور أقل من نصف الوقت المخصص له ينادي رؤوف أفندي علينا جميعا، أن ننقسم قسمين، لكي نبدأ لعبة المحيبس التي يتحدد في ضوئها الفريق الفائز ، أو يتجاوز هذا التقليد ويمضي لكي يقص علينا حلقات مضافة أخرى من إحدى روايات جورجي

زيدان التاريخية التي يعرف كيف يتوقف عند أحدى وقائعها المؤثرة كي يجعلنا في شوق لسماع البقية في اليوم التالي.

وما أكثر ما كان رؤوف أفندي يوقف الدرس، وينهض قائما لكي يغادر الصف ونحن جميعا من ورائه لكي نتجه إلى الساحات المكشوفة المجاورة لجامع النبي شيت لكي نمارس مع معلمنا نفسه كرة القدم، ولا نرجع إلا بعد أن يكون موعد الدرس قد انتهى !!

ولكنه رغم هذا كله يتقن توظيف ما تبقى من وقت لتعليمنا كل مفردات المنهج المقرر دون أن يترك منه شيئا على الإطلاق ... لقد كان والحق يقال مربيا قديرا على الأداء بتحقيق مبدأ الاقتران الشرطي بين الجد واللعب ، بحيث أصبح ذهابنا إلى المدرسة بمثابة فرحة يومية متجددة في حياتنا الدراسية ، على الخلاف تماما مما كان يمارسه الملاليء في الجوامع ، زمن العطل الصيفية عندما كان أهلونا يرغموننا ، تخلصا من سفاهتنا وطيشنا على الالتحاق لعدة أسابيع لتلقي الدروس الدينية التي كان الملا يستخدم عبرها أقصى درجات القسوة والعنف في ممارسته تعليمنا، فضلا عن الملل القاتل الذي كان يدفعنا إلى النوم أو إلى الرغبة في الفرار ... وكنت أنت أحد الذين يمارسون الفرار اليومي ، فإذا بالملا يبعث في أثرك عدداً من زبانيته لكي يعودوا بك إليه محمولا على الأكتاف ، لكي تنال عقابك المعهود.

كان مراقب الصف الأول إسماعيل قد أبتكر طريقة خبيثة لابتزازنا بامتصاص نقودنا وموجوداتنا ، بأن يضع في كتاب القراءة الابتدائية مجموعة من الصور يبعثرها بين صفحات الكتاب ، ويتقدم بها إلينا لكي نسحب من الكتاب نفسه مقابل فلس أو فلسين ، أو لقاء قلم أو ممسحة ، ونحن نمد أيدينا بشغف إلى الكتاب ونفتح إحدى صفحاته لكي ما نلبث أن نفاجأ بعدم وجود الصورة التي كنا نحلم بالعثور عليها ، وهكذا كان يمضي إلى الطلبة الآخرين ويمتص نقودهم وموجوداتهم ويغادر المدرسة وقد اكتظت حقيبته بها ، وقلة قليلة منهم من تحظى بالمطلوب ، وبخاصة إذا كانت الصورة ملونة ، فترجع إلى دورها سعيدة فرحة لأنها قد حصلت على إحدى صور إسماعيل إبراهيم.

ولا زلت تذكر العديد من الوقائع والمفارقات في زمن دراستك الابتدائية ، حتى لقد انطبعت في ذاكرتك بتفاصيلها ، رغم أنك وقد تجاوزت الخامسة والسبعين من العمر بدأت تعاني من داء النسيان ، وبخاصة تذكر الأسماء التي تجد صعوبة بالغة باسترجاعها ...

كتابة حرف الصاد ... رسمه كما الآخرون يرسمونه ... لقد استعصى عليك وعبثا حاولت تدجينه دون أن يستجيب ، ويوما ناداك معلم الصف الأول الابتدائي ، أن تخرج ، أسوة بالتلاميذ الآخرين ، لكي ترسم الحرف على اللوحة ، قبالتهم تماما ... ارتعدت أوصالك ، وتملكك خوف يصعب وصفه ، ورحت بيدك المرتجفة وقالب الطباشير يهتز بين أصابعك ، تحاول رسم هذا الحرف القاسي ، دون جدوى ... فما كان من معلم الخط والقراءة إلا أن يصرخ فيك: ارجع إلى

مكانك أيها الكسول ... عدت وأنت تذرف الدموع بصمت ، بل إنك عبر طريق عودتك ظهرا إلى الدار ازددت بكاء ، إذ كيف ستتجاوز محنتك مع حرف الصاد ذي التعقيد العجيب !

وحتى اللحظات الراهنة ، حيث تجاوزت الخامسة والسبعين من العمر، لم تعرف كيف ترسم حرف الصاد هذا ، رغم أنك أنجزت كتابة آلاف الصفحات عبر هذه السنوات الطوال !!

(٥)

قيل لنا في أحد الأيام أن ملاكما أجنبيا محترفا سيجيئ إلى المدرسة لمنازلة معلم الرياضة (توفيق أفندي) ذي القدرات المتميزة في عالم الملاكمة ، ورحنا نحن ننتظر بصبر فارغ لحظة النزال ثقة في أنه سينتهي بانتصار معلمنا (توفيق) ، ولكن ما إن بدأ النزال المنتظر حتى تلقى توفيق أفندي ضربة أمامية مفاجئة جعلته يترنح طويلا قبل أن يستأنف النزال ... ثم ما لبث بعد لحظات أن تلقى ضربة يسراوية أفقدته التوازن فسقط أرضا ، ثم لما نهض قائما أخذ يتلقى من اللكمات الموجعة ما جعل شعر رأسه ينهض قائما ، وعيناه تدوران في محاجرهما وكأنه يوشك على الإغماء ، وما لبث أن سقط أرضا وهو يرفس بيديه وقدميه ، أما نحن فرحنا نصفق ونهتف (بص شوف توفيق بيعمل إيه) !!

سقوط (صامو) حامي هدف فريق (نادي الجزيرة) العريق لكرة القدم الذي لم يسبق وأن غلب قط ... هكذا رحت وزملائك تتحدثون عن مأساة هذا الرجل ذي الجسم الفارع والمرونة المدهشة والقدرة الخارقة على الإمساك بالكرات المصوبة إلى هدفه !!

توجهت وعدد من زملائك في الابتدائية ، عصر أحد الأيام إلى ساحة الطيران البعيدة في جنوبي الموصل ، حيث ستشهد لقاء كرويا في كرة القدم بين فريقي منتخب المعارف ونادي الجزيرة ... وكلنا موقنون بأن النصر سيكون حليف الفريق الثاني بسبب خبرته وتقدم لاعبيه في أعمارهم قياساً على صبيان وشباب منتخب المعارف ... ومع ذلك جرفنا حماس هائل في تشجيع فريقنا الذي راح يقدم عروضه المتميزة، ويناور، ويقوم بهجماته المتكررة ضد الفريق الخصم بأقدام لاعبيه المتميزين غانم أبو لغد ، وسالم الأعور ، وعبد الجبار خضير ، وعبد الكريم القطان ... وما لبث الفريق الخصم أن تلقى هدفا كان بمثابة الصاعقة التي ألهبت أكفنا بالتصفيق وحناجرنا بالهتاف العالي، وما لبث أن أعقبه هدف ثان.. وثالث ... ونحن نكاد نجن من الفرح بهذا النصر المؤزر الذي لم يكن في الحسبان !!

أسقط في يد فريق الجزيرة، وعبثا حاول مهاجموه أن يسجلوا ولو هدفا واحدا ، على الأقل لحماية ماء الوجه كما يقول المثل ... ثم ما لبثوا حتى تلقوا ثلاثة أهداف أخرى ... يا للهول، صرخنا جميعا أما صامو ، حامي الهدف العملاق ، بعد إذ أنكسر لأول مرة في حياته بأقدام

حفنة من الصبية والمراهقين ، فقد راح يسلي نفسه بأن يتعلق أثر كل ضربة توجه إلى هدفه ، بالعارضة ، ويطبق قدميه ويصد الكرات بطريقة استعراضية تثير الإعجاب والتصفيق الحار !! بعدها اختفى صامو، ليس من نادي الجزيرة فقط ، بل من حياة الموصليين ، ولم يعد يرى في المدينة على الإطلاق !!

في البستان الملحق بمحل والدك بباب السراي ، كنت خلال العطل الصيفية تمارس وابنا عمك هشام الطالب وأنعام الطالب فنونا من اللعب ، لكنها جميعا لم تكن لتعادل الإنكباب على التدخين !! وابتكار طرق رخيصة لتوفير السكائر التي كنا نمتصها بشغف كبير لأنها من صنع أيدينا ... فلقد رحنا نجفف أوراق شجرة التين القائمة وسط البستان ، ثم نقوم بسحقها ، وتخزينها في لفائف الورق الرقيق المصنوع خصيصا لعمل السكائر، وذلك بواسطة مكائن لف صغيرة قمنا بشرائها من سوق المزاد في باب الطوب ورحنا نلف بها سكائرنا التي كنا نمتص منها العشرات في اليوم الواحد ... رغم طعمها الحريف !!

يوماً اكتشفت أمك ثقوبا عديدة في الدشداشة التي ترتديها لدى الذهاب للعب في بستان الوالد ، وقبل أن تتلقى منها ما لا يسر من الاهانات والضربات الموجعة خطرت على بالك فرصة للإفلات بأن قلت لها أن هذه الثقوب إنما هي نتيجة لوقوفك طويلا أمام الكبابجي بانتظار إعطائك حصتك والعودة بها إلى البيت بعد أن يكون رشاش النار المشتعلة بالفحم قد أصابت الدشداشة ...

سكتت أمك على مضض ، ويبدو أنها لم تقتنع بحجتك، لكنها مع ذلك تجاوزت عقابك فقد يكون في كلامك شيء من الحق !!

(٦)

وعبر بدء ربيع كل موسم يؤتى إلى فناء المدرسة بأكداس البعر لجعلها سماداً لزروع المدرسة وسنادينها ذات الأزهار الرائعة ، وكان ذلك باعتباره خروجا على الروتين اليومي ، بمثابة فرحة طاغية بالنسبة لنا حيث يصدر المدير أوامره بأن نتقدم إلى الأكداس فنهرسها بأقدامنا حتى نجعلها طحينا ، ما يلبث الفراشون أن يقوموا بنقله لتسميد الزروع والأشجار ، فكنا ونحن نمارس مهمتنا تلك نتمايل ونرقص ونغني فرحين بهذه الجملة الاعتراضية التي أتاحها لنا مدير المدرسة للخروج عن روتين الدوام اليومي !! رغم أننا كنا نتلقى عبرها أكداسا من غبار البعر ونرجع إلى دورنا لا يكاد يتبين رأسنا من أقدامنا !!

فيما بعد وأنت تتذكر الأيام العالمية للاحتفاليات المسماة باسم الشرائح الاجتماعية كيوم الطفل ويوم المرأة ويوم العمال ويوم الجيش ويوم الشرطة ويوم المعلم ، قلت في نفسك ولماذا لا يضاف إليها يوما آخر يحمل أسم يوم البعر هذا ؟!

وثمة التجربة الفيزيائية التي قرر معلمنا للأشياء والصحة في السادس الابتدائي (عبدالله أفندي عبيد آغا) ، إجرائها أمامنا عبر إحدى الدروس ... استيقظنا تملؤنا الغبطة لمشاهدة هذه التجربة ودخلنا الصف فإذا بالمعلم قد سبقنا وأتى بمنضدة وضع عليها جهاز (البريمز) الذي أشعل ناره وفوقه وضع الإناء الذي يغلى فيه الماء لعمل الشاي ، والذي راحت تتدفق من فوهته كتل من البخار، ووضع قبالته تماما محملا صغيرا من الحديد المشبك ينتهي بفرارة معدنية ذات عدة ريش بحيث أن البخار إذا مر عليها تحركت بقوة اندفاعه تلك الريش ودارت الفرارة !!

ونادى عبد الله أفندي على الفراش محمد علي أن يذهب لاستدعاء مدير المدرسة (بشير الدليمي) لكي يشاركنا في مشاهدة هذه التجربة المتميزة التي تؤكد قوة البخار على تحريك القطارات!! وما لبث الدليمي أن جاء بقامته الفارعة التي يزيدها طولا ارتفاع (السدارة) الفيصلية التي يضعها في قمة رأسه ...

وتقدم عبد الله أفندي للبدء في التجربة بأن وضع الفرارة قبالة صنبور البخار الذي راح يخرج من الإناء بغزارة ملحوظة قائلا: أنظروا يا أولادي كيف ستتحرك ريش الفرارة بسرعة استجابة لاندفاع البخار ... لكن الفرارة حرنت ولم تتحرك ، فأعاد وضعها محركا إياها ذات اليمين وذات الشمال دون أن يبدو منها أيما رغبة في الحركة ، فما لبث أن راح يردد في نفسه (لا حول ولا قوة إلا بالله) ثم أعاد ترتيبها ثالثة فلم تتحرك ... حينذاك نظر إليه مدير المدرسة بشيء من الغضب والمقت والازدراء ثم ما لبث أن غادر الصف عائدا إلى مكتبه ونحن نكاد نغص من الضحك الممزوج بقدر كبير من التشفي بفشل أستاذنا بتجربته الفيزيائية هذه !!

وهل تذكر يوم فتح مدير المدرسة، الصديق الحميم لوالدك، شارعا عريضا في رأسك ؟ كان المدير قد قام قبل يوم واحد بجولة تفتيشية على الطلبة كافة طالبا منهم أن يزينوا شعر رأسهم قائلا: إن إطالة الشعر لا يليق بالرجال ، ولسوف يقودكم إلى التميع والتخنث ، وأنا أرفض ذلك ... وأعطانا يوما واحدا بحيث أننا في اليوم التالي لا نجيء إلى المدرسة إلا وقد حلقنا رؤوسنا. إلا أنك ثقة منك بالعلاقة الحميمة التي تربط المدير الصارم بأبيك، قررت ألا تستجيب لطلبه، وجئت في اليوم التالي مطمئنا إلى أنه لن يمسك شيء من العقاب ... وما لبث المدير أن بدء جولته في صفوف المدرسة ، وبيده مقص حاد راح يسيره على رؤوس أولئك الذين لم يستجيبوا لتعليماته ... فلما جاء الدور عليك ما شعرت إلا والمقص يتحرك في قمة رأسك ويفتح في وسطه شارعا عريضا ... وعدت يومها إلى البيت يغمرك الخجل من أن يراك الناس ، فما كان منك إلا

أن تغطي رأسك بأحد الدفاتر كي تستر على نفسك قائلا: عليك بعد اليوم أن لا تطمئن للعلاقة الحميمة التي تربط والدك بمدير المدرسة الطاغية ذاك !

لا زلت تتذكر، كما لو يتحقق اللحظة، رغم مرور عشرات السنين عليه ، يوم تلقيت صفعة قاسية من معلم الجغرافيا (مسعود أفندي) في الصف السادس الابتدائي ، حيث لحظك وأنت تتحدث بحرية إلى الطالب الذي يجلس إلى جوارك ، خلال شرحه للمادة المقررة، فما كان منه إلا أن يستدعيك إلى اللوحة ويضع في يدك عصا طويلة ويطلب منك أن تؤشر على منطقة سيبيريا في الخارطة المعلقة على اللوحة قبالة التلاميذ ، فارتجفت يدك ، وتملكك الخوف ولم تستطع أن تلبي المطلوب رغم المساحة الواسعة لسيبيريا والتي لا يحتاج البحث عنها لعناء طويل ، فما يكون من الأستاذ إلا أن يوجه إليك صفعته المؤلمة تلك والتي ظل طعمها معلقا في فمك حتى اللحظات الراهنة ... وتقول في نفسك، رغم هذا كله ، يا لتلك الأيام السعيدة !

(٧)

كنت وأخاك الأكبر وخالك (برهان البزاز) الذي لا يكبركم كثيرا ، أطفالا أشقياء بمعنى الكلمة ، لا يقر لكم قرار، وكنا بشقاوتنا تلك نلحق بأهلنا وأنفسنا الكثير من المتاعب دون أن يردعنا ذلك عن الاستمرار فيما جبلنا عليه !!

كنا أيام انهمار الأمطار بعنف وتحوّل شوارع المدينة إلى أنهار، نغادر دار جدتي في منطقة العكيدات ، نحن الثلاثة ، ونجتاز البرك المائية والسيول ، ميممين وجوهنا صوب الطرف الجنوبي الأقصى للمدينة ، ثم ما نلبث أن نعود وقد أوشكت الشمس أن تغيب ، وتغير حالنا ، وابتلت ملابسنا ، وغطت الوحول سيقاننا وأذرعنا ، ثم زحفت لكي تغطي وجوهنا ... وكنا أيام الربيع نغادر دار الجدة إلى منطقة بعيدة بعيدة في أقصى الطرف الجنوبي للمدينة حيث تكثر أشجار التوث التي يتساقط منها على الأرض كم كبير من هذه الفاكهة الشهية ، وكنا نحن قد أطلقنا عليها (أرض التوث) ، نذهب إلى هناك بعد اجتياز المسافات الطوال ونروح نعب أجوافنا من حفنات التوث كميات كبيرة حتى إذا ما أحسسنا بالغثيان يأخذ بخناقنا توقفنا عن التهام التوث وقفلنا عائدين من حيث جئنا.

ويوما اصطحبت معك ابن عمك (انعام الطالب) ويممتما صوب الجنوب حتى إذا بلغتما مساحة كبيرة من الأرض زرعت بالخس الذي استوى على سوقه بخضرته الزاهية وأوراقه الشهية انقضضتما على رأسين كبيرين منه وبدأتما بالتهامهما ، فإذا بحارس المزرعة يقف على رأسيكما مطلقا من فمه سيلا من أشد أنواع الشتائم والسباب ، ثم ما لبث أن أمسك بك وساقك إلى جذع شجرة قريبة وأقسم أن يربطك بها الساعات الطوال ، تأديبا لك كي لا تعود لمثلها مرة أخرى ، فما

كان منك إلا أن أشرت إلى ابن عمك أن يهرع إلى الشارع العام ويستنجد بالمارة علهم يرغمون الحارس على فكاك أسرك ، ونجحت الخطة وغادرتما المكان ومن ورائكما رشاش من الشتائم والسباب ، والتلويح بأننا إذا عدنا لمثلها مرة أخرى ، فلن يفك أسرنا حتى لو اجتمعت عليه الدنيا بأسرها ...

مرة أخرى حدثتك نفسك بسرقة موس حاد مما تقشر به الفاكهة ويوضع في الجيب بغلافه الخشبي ذي الألوان الرائعة ، كنا نسميه باسمه التركي (قره نطراش) ... سرقته من عائلة من الأقرباء كنتم قد خرجتم بمعيتهم في رحلة ربيعية إلى حديقة الجانب الأيسر التي كانت يومها أشبه بالفردوس الأرضي بزهورها ، وروائحها وأشجارها الباسقة ، وظلالها الباردة ، ومساحاتها الخضراء ، فما كان منك إلا أن تنتهز فرصة دخولهم في حوار ساخن مع بعضهم ، فتمد يدك إلى القره نطراش وتضعه خلسة في جيبك ... ولكنك لحسن حظك ، ما إن عدت إلى البيت حتى سيطر على حواسك إحساس ثقيل بالتأثم وبأنك قد مارست خطأ كبيرا لا يرضى عنه الله سبحانه ... فما كان منك عبر الأسبوع التالي ، حيث رتبت رحلة أخرى مع العائلة نفسها ، إلا أن تتسلل إلى موجوداتهم وترمي القره نطراش وسط إحساس غامر بالفرح والتخفف من عبء ثقيل!!

الأمر نفسه تمّ مع أحد بقالي محلة باب لكش المجاورة لجامع خزام حيث كنا نسكن ، مررت بجوار البقالة حيث صفت زنابيل السكاكر والجرزات والجكليت ، فالتصقت بجوارها وانتظرت حتى لحظة انشغال البقال (عبد الرزاق الميراني) رحمه الله ، والد صديقي الحميم فيما بعد (فاضل) مدرس الإنكليزية المبدع الذي توفي هو الآخر عليه رحمة الله ، ومددت يدك إلى أحد الزنابيل ودفعت بها إحدى قطع الجكليت إلى الأرض ثم تناولتها بإصبع قدمك اليمنى ومضيت دون أن يحس بك أحد ... وعندما هممت بالتقاطها ، ووضعها في فمك ، عاد الإحساس المرير بالتأثم يمسك بخناقك ، فما كان منك إلا أن ترجع ، والقطعة بين أصبعي قدمك فترمي بها أسفل الزنابيل وتمضي إلى هدفك سعيدا وقد أزحت عن كاهلك ذلك الهم الثقيل ...

يوما قمنا نحن الأشقياء الثلاثة بالتحرش بمجموعة من الصبية الآثوريين الذين كانوا يسكنون في حي قريب من دار جدتي في منطقة العكيدات ، كانوا أكثر منا وأكبر عمرا ، فما كان منهم إلا أن صرخوا صرخة اهتزت لها براري المنطقة ، وأرادوا الانقضاض علينا لإعطائنا علقة ساخنة كي لا نعود إلى لمثلها مرة أخرى ... إلا أننا كنا قد أفلتنا وشمرنا سيقاننا ركضا إلى بستان بيت الجدة ذي الحائط المرتفع ... أنت وأخوك استطعتما الفرار، ولكن خالكما برهان البزاز كان يركب حمارا فوخزه بعنف لكي يحثه على الإسراع، حتى إذا بلغ باب البستان الحديدي دفعه بأقصى ما يستطيع من قوة فإذا به ينفتح قليلا حيث يتسلل الحمار من فتحته تلك تاركا برهان وجلال الحمار معلقين بحافات الباب ، وراح خالي يصرخ أن أغيثوني والآثوريون يقتربون

منه شيئاً فشيئا وبيدهم العصي التي ما لبثوا أن أشبعوه بها ضرباً وهو محاصر وجلال الحمار عند حافات الباب اللعين !!

في رحلة عائلية إلى دهوك بدعوة من صديق الوالد (أبو منيب) عليه رحمة الله ، حيث داره المتواضع المبني من الطين ، لم نرحم نحن الأشقياء الثلاثة شيبته ولم نرفق بداره ، حيث كنا عبر أيام بقائنا الثلاثة نخرج إلى السطح لكي نتصارع بضرب الوسائد والبيت كله يهتز تحت أقدامنا ... وفي اليوم الثالث طرق أسماع أمك حوار يدور بين الداعي وزوجته ، خلاصته أن هذه العائلة التي تكرمت بدعوتها إذا استمرت على البقاء يوما آخر ... يوما آخر فقط ، فإن بيتك سينهدم على رؤوسنا ... فما كان منها إلا أن تطلب من الوالد الاستئذان بالعودة قبل أن يقع المحذور !!

(٨)

في الخريف كانت معظم عوائل الموصل تيمم وجوهها صوب حمام العليل لقضاء بضعة أسابيع هناك حيث الاستجمام بمياه الحمام المعدنية ، وقضاء أيام طيبة هناك في القضاء الواسع المليء بنباتات اللوبيا الخضراء الزاهية ، ومقاهيها ، وسوق مزادها الكبير، وجلسات شوائها اللذيذ.

حدثتك نفسك في إحدى الرحلات إلى هناك، حيث استأجر والدك داراً واسعة قريبا من الحمام ... أن تصعد إلى سطح الخزان المائي الكبير الذي يغذي المدينة بكاملها ، ورحت تصعد درجات سلّمه الحديدي الضيقة والتي تتجاوز العشرات والمئات ، حتى إذا بلغت آخر واحدة منها أفلت يديك وقدميك وقفزت إلى سطح الخزان ، ولكنك ويا للهول وجدت نفسك قبالة سطح منحن لن يكون بمقدور أحد الوقوف عليه ، ومع هذه المحنة ، كانت تهب ريح عاتية قديرة إذا لم يمسك الإنسان بشيء ويعض عليه بالنواجذ أن تقذف به بعيدا وتجعله حطاما ... تملكك رعب يصعب وصفه ، إذ كيف ستبدأ بالنزول ؟ وأنى لك أن تضع قدمك على الدرج الأول من السلم الطويل ... هب أن رجلك أفلتت قليلا عن المسار المطلوب وأصابتك في الوقت ذاته رشقة من الريح العاتية، ألا يكفي ذلك لأن تفقد القدرة على التحكم في موقفك وتسقطك أرضا حيث ما تلبث أن تغدو ركاما ؟

لكنك ما لبثت أن تذكرت معونة الله سبحانه في لحظات الضيق ، وأنه جل في علاه إذا شاء أن ينقذ الإنسان من ورطته ، فإنه يقول للأشياء كوني فتكون ... وصرخت بأعلى صوتك: يا الله !! وأنت تتشبث بحافات المخزن المائي التي لا تسمح بالإمساك ، وتتلمس بأصابع قدميك علك تجد الدرجة الأولى من السلم الطويل ، فلما لمستها وأحسست فعلا أنها الدرجة الأولى وضعت قدمك عليها وأنت تصرخ مرة أخرى: يا معونة الله !! ثم ما لبثت أن أمسكت بقوة في

حافات السلم وبدأت تنزل حتى وصلت الأرض سالماً وقد اختطفت الصفرة وجهك، وأنت تقول: حرام عليك بعد اليوم أن تمارس مجازفة كهذه !!

غادرت الدار، في محلة جامع خزام ، عبر إحدى الليالي وحيدا ، وما لبثت قدماك أن ساقتك إلى منطقة البحيرة الاصطناعية المجاورة لحديقة الشهداء والمكتبة العامة ، فإذا بك تفاجأ بمجموعة من الصبيان الأشقياء يشيرون إليك من بعيد وهم يصرخون: ها هو ذا !! ويتقدم منك أحدهم لكي يستفزك ويمهد لهم الطريق للانقضاض عليك بأيديهم وأرجلهم ، فما كان منك إلا أن تتذكر مقولة معلم الجغرافيا بأن الهجوم خير من وسيلة للدفاع نزعت نعليك وانقضضت على الصبي ، وأنت تضربه على رأسه بعنف قائلا له: خذها مني أيها الكلب الحقير، وبعدما أشبعته ضربا أمسكت بنعليك ورحت تركض عائدا إلى الدار والصبيان يطاردونك حتى إذا أعيتهم الحيل، وضاعت عليهم مسالك الطريق قفلوا عائدين وخرجت أنت منتصرا !!

ونتذكر واقعة أخرى يوم اشتعل بينك وبين أحد زملائك في الخامس الابتدائي شجار عنيف، وهدد أحدكما الآخر بأنه إذا ما تمت مغادرة المدرسة فإن موعد الحسم سيكون خارجها ... عدت إلى البيت وأخذت قطعة من الخشب ورحت تكتب عليها (لا اله إلا الله محمد رسول الله. إن ينصركم الله فلا غالب لكم) ، ووضعتها في حقيبتك المدرسية ، وفي اليوم التالي يممت صوب المدرسة ، حتى إذا انتهى الدرس الرابع والأخير، وغادرتم المدرسة ، لحقت بزميلك ذاك وأنت تصرخ في وجهه : خذها مني !! وانقضضت على رأسه توجعه ضربا بالخشبة إياها. ولقد فوجئ الصبي بالموقف ولم يبد حراكا ... وعدت إلى البيت سعيدا وقد حققت ما تريد ...

بعد أربعين عاما من تلك الواقعة ، وعندما دخلت جملة مشاريع فكرية مع المعهد العالمي للفكر الإسلامي حول إسلامية المعرفة ، أو التأصيل الإسلامي للمعرفة ، تذكرت وأنت تضحك كيف أنك نفذت التأصيل المطلوب مع زميلك ذاك بقطعة الخشب التي كتبت عليها **{إِن يَنصُرْكُمُ اللّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكِّلِ الْمُؤْمِنُونَ }** (آل عمران ، الآية ١٦٠) !!

إلا أن شقاوتك تلك لم تبلغ حدودها القصوى إلا في ليالي رمضان عندما كنت وأخوك الأكبر وخالك تغادرون الدار ليلة كل يوم وتترصدون للعربات التي تجرها الخيول ، والتي كانت يومها هي وسيلة النقل الأساسية داخل الموصل ، فتتعلقون بجهتها الخلفية وهي تمضي بكم عبر أحياء وشوارع مناطق الموصل كافة ، حتى إذا ما صادف أن لحظكم أحد الصبية الأشقياء مثلكم نادى على العربجي الذي يقود العربة: انتبه فإن ورائك ثلاثة صبية ، وقبل أن ينزل بكم سوطه الذي يلسع كالنار، تكونون أنتم قد قفزتم ورحتم تترصدون لعربة أخرى ... وهكذا وعبر جملة من المجازفات مع العربات الرائحة والغادية عبر أحياء المدينة وحاراتها وشوارعها ، تكونون أنتم قد طفتم بكل أطرافها ... وبالمجان !!

قبل بدء أمسياتنا الرمضانية تلك ، وقبيل اقتراب موعد الإفطار، كنت وأخوك تخرجان يوميا إلى سطح الدار كي تتلقيا صوت المؤذن في جامع خزام القريب ، فتمدان رأسيكما عبر حاجز السطح لكي تعلما الوالد والوالدة ، بأن لهما أن يبدآ بتناول فطورهما ... كانت تلك من أسعد اللحظات عبر يوم الصيام في ذلك الصيف القائظ ، وكانت عيونكم تتمركز عند اثنتين بانتظار لحظة الإفطار: حوض جامع النبي جرجيس حيث تدور الراية الخضراء معلنة عن بدء الإفطار، وحوض جامع خزام القريب حيث كان يقف المؤذن محمد برّاتو (عليه رحمة الله) ذو الصوت العذب، فبمجرد تحرك الراية ، وقبل أن يرفع عقيرته بالأذان يكب في فمه كما كبيرا من ماء (الشربة) التي وضعت عند حوض المنارة ، وكنت أنت وأخوك بمجرد سماع ومشاهدة ذلك كله تركضان إلى سياج السطح لكي تعلنا عن بدء الإفطار، ثم ما تلبثان أن تنزلا ركضاً مختزلين كل ثلاث درجات أو أربعة بقفزة واحدة لكي تلحقا بالأهل وتتناولا معهما الوجبات الطيبة التي كانت والدتكما (رحمها الله) تتقن صنعها ...

(٩)

وتدور الأيام ، وإذا بك تفاجأ وأنت بعد في الصف الثالث الابتدائي ، بأن موعد ختانك وأخاك وخالك قد حان ، وأنه سيكون في أخريات العطلة الصيفية ...لم تكن تعرف تحديدا معنى الختان ، ولا الآلام القاسية التي يسببها ، ومع ذلك فإن شيئا من الخوف انتابك لما يمكن أن تشهده الواقعة ... أعلن في صحيفة الموصل المعروفة (فتى العراق) عن موعد ختاننا ، لكي يكون المدعوون على بينة من الأمر ... وفي الليلة التي سبقت الختان أخذنا وأخي وخالي إلى إحدى السينمات الصيفية لمشاهدة فيلم (لست ملاكا) الذي يتولى محمد عبد الوهاب بطولته ... لم تكن تفهم من الفيلم شيئا ، وعبر المراحل الأخيرة منه أخذتك سنة من النوم العميق فما لبثت أن وجدت نفسك على سريرك في البيت.

في صبيحة اليوم التالي بدأ المدعوون يتدفقون لتناول الفطور الفخم الذي اعد في سرداب بيت خالي (يحيى البزاز) (رحمه الله) والحضور لحفل الختان ... كنت أنت وأخوك وخالك وأبناء عمومتك تركضون في الأزقة المجاورة وتمارسون فنونا من اللعب دون أن تدروا عما ينتظركم شيئا ... لم تتناولوا حتى فطوركم مع المدعوين ... ثم ما لبث أن جاء (المطهرجي) هكذا كان يسمى ، وهو يحمل حقيبته المقوسة وهي تتضمن لوازم الشغل ، وحمل خالي برهان وهو يصرخ ويتلوى محاولا الفرار من قبضة الأيدي التي أمسكت به وخلف ستارة بيضاء أمسك بطرفيها كل من والدي وخالي ، بدء القصاب يعمل مبضعه ، والمدعوون يصرخون بأعلى صوت (ورده حاق صاق ناصي هي) وهي عبارة تركية متوارثة ، ومن ورائهم ترتفع هلاهيل النساء في الطابق الأسفل من الدار ... وما أن أتم المطهرجي عمله مع خالي حتى تحولوا إلى أخي الأكبر، وأنت

تذرف الدموع مرتعبا في زاوية الرواق ، حتى إذا جاء الدور عليك أرتفع ، صراخك ، ولقيت عبر العملية من الآلام ما يعجز الوصف عنه ... ثم ما لبثوا أن أخرجوك لكي يضعوك إلى جوار خالك وأخيك على أسرتكم الأنيقة التي أعدت خصيصا لهذا الغرض، حيث تقدم عدد من الأقرباء والقريبات فأعطوا كل واحد منكم تفاحة لبنانية حمراء كانت يوم ذاك من النوادر التي لا يتناولها سوى المترفين ... وصندوقا جميلا مليئا بالفستق الأخضر اللذيذ ... وثمة صندوق آخر مليء بالسكاكر الأجنبية المتميزة ... فكانت فرحتنا بهذه الهدايا مما غطى على ما كنا نعانيه من آلام ...

(١٠)

بعدها ، وكمكافئة لك باعتبارك أصغر المختونين، وعدك والدك باصطحابك معه في رحلته القادمة إلى بغداد ... كان ذلك بمثابة الفرحة الكبرى التي غطت كل شيء، وما لبثت أن انطلقت بمعية والدك وصديقه التاجر يحيى قاسم الشيخ عبدال (عليهم جميعا رحمة الله) في القطار الصاعد إلى بغداد ، حيث كان والدك – كعادته – يواصل المقالب والنكات والمفارقات مع الموجودين في القطار فيكسب المزيد من محبتهم وصداقتهم ...

كانت بغداد يومها عام (١٩٥٠م) غير ما أصبحت عليه عبر العقود التالية من الزمن ... نظيفة ، وضيئة ، أنيقة ، قليلة السكان ، مغسولة الشوارع ، كثيرة النخيل ، ميسرة الخدمات ، رائعة المطاعم والفنادق والمتنزهات يعيش فيها الناس على خلاف مذاهبهم وأديانهم في محبة وتواصل وتعاون وانسجام ، وليس ثمة ما يعكر صفو حياتهم الاجتماعية المتجانسة ، بخلاف ما راحت بغداد والعراق يشهده عبر العقود التالية وبخاصة بعد الاحتلال الأمريكي القذر للعراق ...

وعدنا إلى الموصل في القطار نفسه بعد أن أشترى لك الوالد مجموعة من لعب الأطفال فضلا عن الدراجة التي وعدك بها، والتي عدت بها إلى الموصل وكأنك تحمل كنزا ثمينا ...

وتذكرت وأنت تتناوشك ذكريات طفولتك تلك ، ذلك الخندق العميق الذي يفصل بين ما كان عليه بلدك يوما من تواد وتراحم وانسجام ، ونظافة وخدمات وعمران ، وبين ما آل إليه بعد الغزو المدمر للعراق ، وما أعقبه من دمار عمراني وخدمي ، ونهب اسطوري للمال العام ، وما أعقبه من فتن طائفية لم تكد تبقي له شيئا على الإطلاق ...

تذكرت يوم كان والدك يستقبل في محله العامر بباب السراي المتعاملين معه من الكرد والآثوريين ، وكيف كان يقوم إلى جانب محله محل آخر للتاجر المسيحي (يوسف حنا بحّو) وقبالته تماما محل التاجر اليهودي (أبو يونة) وكيف كانت علاقات الألفة والمحبة واللقاءات المستمرة والدعوات المشتركة والرحلات الربيعية تربط بين الثلاثة ، رغم أن أباك (رحمه الله) ما

كانت تفوته صلاة في جوامع الموصل ، بل بسبب من التزامه بالصلاة ، وبمطالب إسلامه العظيم جميعا عرف كيف يقيم علاقات المودة بين المسيحي واليهودي والآثوري ، وأن ينشئ صلات التبادل التجاري المترعة بالود والإخلاص للكردي والشيعي ...

فأين هي الآن تلك الأيام ... أفلا يحق لك في نهاية روايتك الموجزة هذه للقطات المؤثرة في رحلتك مع عالم الطفولة ، أن تظل تردد مع نفسك ومع الآخرين: يا لتلك الأيام السعيدة ... يا لتلك الأيام السعيدة ؟!

ايجو غدوي !!

كنت مسئولا عن إدارة قسم التراث في المديرية العامة لآثار ومتاحف المنطقة الشمالية ، وكنت أخرج يوميا ، بصحبة عدد من الموظفين والموظفات التابعين للقسم ، لكي نقوم بجرد المعطيات التراثية للموصل القديمة ... فكنا نجتاز الأحياء زقاقا زقاقا ودارا دارا ، ونحن نسجل على استمارات خاصة المواقع والأبنية ذات القيمة التراثية ، لكي ما نلبث أن نرجع بعد ساعات من التجوال إلى المديرية لكي نسقطها على خرائط الكادسترو سواء كانت دورا سكنية أم أبنية خدمية أم مؤسسات تعبدية ... وأنصرف بعدها لكتابة تقرير مفصل عن المنطقة التي أكملنا جردها ، أبين فيه ملامحها التراثية وموجوداتها العمرانية التي تنطوي على كنوز من إبداعات البناء الموصلي على مدى عشرات السنين ...

ويوما وجدتني أسير حلم غريب ، يبدو أنه انعكاس بشكل أو آخر، لرحلاتنا اليومية تلك عبر أزقة الموصل وأبنيتها التراثية ... وجدتني أقود مجموعة الموظفين والموظفات في الحي المسمى (رأس الكور) المتفرع من شارع النبي جرجيس ، حيث تتدفق عبر قناة مكشوفة مياه السواقي والصرف الصحي والقاذورات التي تنصب فيه من كل الأحياء المجاورة ، ثم ما يلبث أن ينحدر شرقا باتجاه نهر دجلة لكي يصب هناك..

ثمة مجموعة كبيرة من أبناء الزقاق ... ومن المارة الذي اعتادوا اجتيازه في طريقهم إلى أعمالهم، تقف متكتلة عند حافة القناة التي تتدفق عبرها المياه القذرة ، تنظر إلى نقطة ما في القناة ، والدهشة تأخذ بتلابيبها ... بعضهم كان يشير بيديه إلى تلك النقطة ، وبعضهم الآخر راح يعبر بقدر كبير من الاشمئزاز والنفور، وربما التخوف ، عن إحساسهم وقد عقد الخوف ألسنتهم ... بينما راحت جموع الأطفال تتصايح بفرح وهي تحدق في النقطة ذاتها مشيرة إليها بجذل كبير.

تقدمت بثقة بالغة من التجمع إياه ، ومن ورائي مجموعة الموظفين والموظفات ... أشرت إليهم أن يفتحوا لي ممرا واسعا لكي أعاين القناة، فما كان منهم إلا أن ينشقوا إلى قسمين مستجيبين لطلبي ، ويتركوا لي طريقا واسعا نحو النقطة التي أثارت ذلك الكم الكبير من ردود الأفعال.

شعرت وأنا أراهم يلبون أمري بزهو كبير، ورحت أتلفت وأنا أتقدم عبر الممر باتجاه حافة القناة، إلى مجموعة الموظفين وكأنني أقول لهم: ها هو ذا مدير شعبتكم الذي لا يرد له طلب ، فكانوا ينكسون رؤوسهم خجلا وكأن لسان حالهم يقول: وكيف يرد طلب السيد المدير ... انه هو الآمر الناهي في الشعبة فكيف يرد طلبه ؟!

مضيت وهم من ورائي بخطوات واثقة عبر الممر، وجماهير الناس تنظر إلي بقدر كبير من التقدير والاحترام الذي يتجاوز حدوده المعقولة نحو نوع من الإعجاب ...

ثم لما وصلت حافة القناة ألقيت نظرة على تلك النقطة التي جمعت حولها كل هذا العدد من الكبار والصغار، تبين لي أنها جثة جرذ ميت تنحدر مع المياه القذرة باتجاه النهر ... جرذ كبير يتجاوز في حجمه المثير كل ما سبق لي أن رأيته في حياتي ... حدقت فيه جيدا ، ثم ما لبثت أن التفت إلى جماهير الناس التي راحت تنتظر بلهفة بالغة ما سأقوله ... ورحت وأنا انقل نظراتي بينهم ذات اليمين وذات الشمال ، وأعود أركزها في جثمان الجرذ الكبير.. أشعر بمزيد من الاعتزاز بهذا الصمت الذي طغى على الجماهير.. بهذه اللهفة التي تنتظر كلمتي في الموضوع ... ألست أنا مدير شعبة التراث الذي يأمر فيستجاب طلبه !

صرخت فيهم: أتدرون ما هذا ؟!

لم يجبني أحد احتراما وتقديرا ... فصرخت ثانية: وهل تعرفون تسميته باللغة الفرنسية ؟

نظر بعضهم إلى بعض دون أن ينبسوا بكلمة واحدة وكأن لسان حالهم يقول : ومن لنا بمعرفة الفرنسية ، ونحن من كادحي الموصل وسكانها المحليين ؟

صرخت ثالثة: لماذا لا تجيبوني ... إنني أسألكم ، ما الذي يسمى هذا الكائن الغريب بالفرنسية ؟

مرة أخرى لم أتلق أيما جواب ... فما كان مني إلا أن أرفع صوتي إلى أعلى وتائره وأنا أقول لهم: إنه يسمى (ايجوغدوي)!!

نظروا إلي بقدر كبير من الدهشة والتوقير دون أن تصدر عنهم كلمة واحدة ، فما كان مني إلا أن أشير إلى مجموعة الموظفين والموظفات أن يتبعوني ، وقفلت عائدا عبر الممر الواسع الذي فتحته لي جماهير الناس برأس مرفوع، وهم يحدقون في بنظرات مترعة بالتقدير والاحترام والإعجاب!!

استيقظ من هنا الحلم الغريب وأنا أتساءل: ما الذي يدل عليه هذا ؟ صحيح أنه لا يعدو أن يكون من أضغاث الأحلام التي لا تجد لها تفسير معقولا.. وصحيح أيضا أنه لا يعدو أن يكون عبثا لا ينطوي على أي معنى على الإطلاق ، لكني لم أقتنع بهذا الذي ذهبت إليه ، محاولا إبعاد هذا الحلم عن ذاكرتي بما ينطوي عليه من إثارة للتقزز والاشمئزاز ... وإلا فما الذي يعنيه اندفاع جرذ ميت عبر قناة مترعة بالأقذار صوب حافة النهر لكي ما يلبث أن تبتلعه الأمواج ؟ وسرعان ما وجدتني أهرع إلى صديق حميم عرفت عنه مهارته الفائقة في تفسير الأحلام ورحت أقص عليه بالتفصيل الممل ما شاهدته في الليلة الماضية ، وهو يحدّق في والابتسامة تكسو وجهه ، حتى إذا ما أتممت حديثي ، ورحت أنظر إليه بلهفة علني أحظى بالمطلوب..

قال دونما مقدمات ، والابتسامة ما تزال معلقة على وجهه: هل أنت من الملمّين باللغة الفرنسية؟ بعبارة أخرى: هل تستطيع التحدث بها بطلاقة إذا استدعت الضرورة ذلك ؟

أجبته وأنا أعتصر ذاكرتي محاولا استرجاع الأشهر الثلاثة التي تلقيت فيها ومجموعة من طلبة الدراسات العليا في بغداد ، (كورساً) باللغة الفرنسية ، ولكننا جميعا ، نحن طلبة الماجستير الخمسة ، سرعان ما نسينا كل ما تعلمناه ، اللهم إلا أن نعد ون دو تغوا كاتغ ... أي واحد اثنان ثلاثة أربعة !! أما المفردات الأخرى فقد طواها النسيان.

قال: وهل تتمنى لو أنك لم تنس ما تعلمته ، وواصلت طريق دراستك للفرنسية حتى أصبحت تتحدث بها بطلاقة تثير الإعجاب ؟!

قلت له: ومن منا لا يتمنى ذلك ؟ ولكن ...

تساءل: ولكن لماذا؟

قلت: لقد استنزفني التأليف باللغة العربية ، التي عرفت كيف أمسك جيدا بأسرارها من أجل أن أخاطب جماهير قرائي بأعذب الأساليب وأشدها إغراءً بمواصلة القراءة ...

قال ، والابتسامة تزداد انفساحا على وجهه: هذا هو إذن تفسير حلمك العجيب.. هذا هو سرّ (الايجو غدوي) التي أطلقتها بثقة بالغة وأنت تشير إلى الجرذ الميت ، مخاطبا جماهير الناس !!

هززت رأسي كأنني لم أدرك مغزى ما يقوله ...

فاستدرك موضحا: إنها يا أخي العزيز عقدة ... عقدة مستعصية ظلت تعمل عملها في عقلك الباطن إلى ليلة أمس حيث وجدت الفرصة الملائمة لكي تنفجر وتريحك ... إنني على أية حال أهنئك على خلاصك من هذه العقدة ... على تحررك من ضغطها الثقيل ...

رجوته تشبثت بأذياله ... من أجل أن يزيد إيضاحه لكي أصل إلى القناعة المطلوبة ...

لحظت عليه شيئا من نفاد الصبر وهو يقول: لا أتصور أن كلامي يحتاج إلى المزيد !!

شكرته قبل أن أسمع منه ما لا يسر، وانصرفت عائدا إلى دائرتي ، وما لبث تحليله للحلم أن تكشف لي على مصراعيه وبالوضوح المطلوب.

إنه عقدة اللغة الأجنبية التي تمسك بخناق العرب ، وبخاصة العراقيين منهم ... أنهم – في معظم الأحوال – يقطعون شوطا من الطريق في سياق تعلمها ، ثم ما يلبثوا أن يتوقفوا عن مواصلة المسير فتظل بقاياها معلقة في أطراف ذاكرتهم لا تعينهم على القراءة ، أو الكتابة ، أو الحوار ...

ها أنا ذا أتذكر شوقي ولهفتي على تعلم الفرنسية عندما علمت بأننا سنمارس دراستها ضمن مطالبنا في مرحلة الماجستير، ولكن ما الذي يفعله كورس واحد لا يتجاوز الأشهر الثلاثة ولم نحاول أن نبني عليه ونواصل المسير ؟

لقد كانت صرختي في جماهير الناس الملتمة حول الجرذ الميت بأن تسميته بالفرنسية (ايجو غدوي) هي بمثابة إخراج على الهواء الطلق لهذا الذي يعتمل في نفسي ، يختنق في أقبيتها ، محاولا أن يخرج لكي يقول للناس: ها أنا ذا أتحدث الفرنسية بطلاقة لا تلعثم فيها على الإطلاق !!

لقد صدق زميلي ذاك في تفسيره للحلم ... فليس عبثا أن يلجأ إليه الموصليون كافة طالبين منه تفسير أحلامهم حتى ولو كانت أضغاثا!!

الكلمة المضيئة

اجتزت المسافات ... خرجت الليل بالنهار ... تمزق نعلاك وأنت تقطع البراري والقفار ... لم تعد تأبه للقمة تسد بها جوعك ... لشربة ماء تبل بها ريقك ... تحديت جغرافية الزمن والمكان وأنت تذرع الأرض ولسان حالك يقول: عليك أن تصل بغداد ... مهما بذلت من جهد ... مهما اشتد بك الجوع والعطش ... فعليك الوصول إلى بغداد ...

شيخها الكبير الذي رحل إليه العلماء والدعاة والمؤرخون والشعراء والعاملون ، قطعوا من أجل الوصول إليه أعمارهم ... اسكتوا كل النداءات التي أرادتهم أن يكفوا عن الرحيل الصعب ... الرحيل المستحيل ... وأن يرجعوا من حيث أتوا إلى أهليهم ... إلى زوجاتهم وأطفالهم ... إلى الاستقرار المطمئن السعيد في بيوتهم ... ولكنهم رفضوا هذا كله ، ومضوا لا يلوون على شيء ، قادمون من مشارق ديار الإسلام ومغاربها ... إلى بغداد ... حيث تتدفق كلمات الشيخ بوهجها النوراني كالشلال ... توقظ الضمائر ... تسقط الرين المتكدس على العقول والقلوب ، وتفتح الأبواب المؤصدة على عوالم البهجة الروحية ... والفرح ... والنور ...

أنت مثلهم ... أنت لا تقل عنهم في أشواقك المتلهفة للعثور على موطئ قدم بين آلاف المنصتين للشيخ وهو يوزع ابتساماته ، ويصوغ عباراته التي لا يعرف المرء ، مهما بذل من جهد، من أين يستقيها ، وكيف يكهرب بها عقول الجماهير التي كانت تتعنى حضور محاضراته المدهشة قبل ساعات من موعدها كي تجد لها فسحة مكان ...

يا الله ... على هذه القامة الفارعة المترعة بعلوم الأولين والآخرين ، بخبرات الآباء والأجداد ... بتجاربهم الموغلة في عالم الروح ... بنبضهم الذي يخفق كالكواكب الدرية في عروقهم فيجعلهم يلبسون كلماتهم لحما وأعصابا ودما، فتتحرك شاخصة قبالة الجماهير وهي مأخوذة بسحر الكلمات !!

يا الله على هذا الخطيب الفذ الذي يقدر بقوة روحه الموغلة في الأعماق ، أن يشد إليه آلاف المستمعين الذين ينصتون إليه الساعات الطوال وكأنها دقائق معدودات !!

امض يا رجل ... تجاوز رغبتك العاتية في النوم ... في أن يسرق من وقتك ولو دقائق معدودات ... تخل عن حاجتك للطعام والشراب ... إنس متاعبك الجسدية ... وكلل أقدامك ، وتشققها ... وامض ، وليكن هدفك أن تصل بغداد ، كما وصلها آلاف من العشاق قادمون إليها من المشارق والمغارب ... لم يلتفتوا لنداءات الطعام والشراب ... لم يكترثوا للإعياء الذي أصاب أجسادهم ... لتيبس أقدامهم وتشقق نعالهم ... إذ كان عليهم أن يواصلوا المسير رغم كل شيء من أجل الوصول إلى بغداد ، وحضور مجالس الشيخ الكبير ومواعظه التي تبهر الألباب ...

لطالما سمعت من الرائحين والغادين ، أنهم وقد جاءوا يحملون على أكتافهم هموم الدنيا ، فما لبثوا وهم ينصتون لكلمات الشيخ ، أن داسوها تحت أقدامهم ، وأحسوا أنه بكلماته تلك حررهم حتى الأعماق ... غسل أرواحهم من كل ما علق بها من متاعب ومنغصات وأحزان ، وجعلهم ينطلقون إلى العالم بسعادة يصعب وصفها ، وقد تخففوا من كل العذابات والآلام التي جاءوا يحملونها على ظهورهم ... يا لروعة كلماتك أيها الشيخ الكبير، وأنت توغل كجراح ماهر في حنايا الروح والوجدان لكي تستأصل منها كل العقد والمنغصات ... يبدوا أنك تصبّ روحك المدهشة في كلماتك فتمنحها القدرة على أن تحيي موات النفوس وتبعثها من جديد ...

وأنت تخط قدميك على الطريق المترب الطويل، منذ أيام، بدت لطولها كأنها دهر لا يعرف المرء بدأه من منتهاه ... وتمسك متاعب الرحلة الطويلة بجسدك وأعصابك ... مؤملا أن تطل على مشارف بغداد ... حيث الفرح والبهجة والامتلاء ... إذا بك تفاجأ بمجموعة من قطاع الطريق يقفون على حين غفلة قبالتك تماما ... وهم يتربصون على خيولهم، يسدون عليك الطريق ... تقول لهم: لا تتعبوا أنفسكم، فليس في جعبتي أي شيء أمنحكم إياه ... فدعوني أمضي ...

ضجّوا بضحكاتهم التي رددت الصحراء صداها، وقالوا: هات ما عندك !!

فأعدت عليهم القول بأن ليس لديك أي شيء تمنحهم إياه، وأن عليهم أن يخلوا سبيلك ، فإن الذي جئت من أجله تتضاءل معه كل إغراءات الحياة الدنيا من الذهب والفضة ...

لم يدركوا قصدك، وراح بعضهم ينظر بدهشة إلى بعض ، بينما واصلت أنت: إن كلمة واحدة من الشيخ ، الذي قطعت من أجل الاستماع إليه المسافات الطوال ، لو وزنت بأموال العالم كله لوزنتها ... فدعوني أذهب لتلقي كلماته ...

همس أحدهم في أذن قاطع طريق آخر يقف بجواره: ما الذي تراه ؟

– لندعه وشأنه ... يبدوا أنه مهووس ... أو ربما مجنون يتحدث بلغة لا نكاد ندرك مراميها ...

– ولكنه إذا أردت الحق لا يقول إلا صدقا ...

– كيف ؟

– إن الكلمة عندما تصدر من أعماق القلب ... عندما تتفجر عن نبض الوجدان ... عندما تكسب من قوة الروح قدرتها المدهشة على أن تكتسي لحما ودما ، فإنها حين ذاك تعدل الدنيا وما فيها !!

– لا أدري بأي منطق تتحدث ... ونحن إنما قطعنا المسافات الطوال، واجتزنا الليل والنهار ... بحثا عمن نسلبه شيئا مما يعيننا على مواصلة الحياة ... فلما عثرنا عليه، ها أنت ذا ترجح قوة الكلمة على كل ما يمكن أن نحظى به من متاع ...

– أنظر إلى وجهه ... تمعن في غور عينيه ... فإنك والله غير واجد فيها غير الصدق والحق ...

– ذلك ما تقوله أنت ...

– وأنت ماذا تقول ؟

– لقد وقعنا على الفريسة، بعد تجوال طويل أوصلنا إلى حافات الجوع والهزال، وإن علينا أن ننقض عليها لكي نحظى بما نريد ...

أعطى الإشارة إلى الرجال المحيطين به ، فانقضوا عليك، لم يكن لك بهم القدرة على المقاومة ... كنت تعبا مرهقا حتى النخاع، فما كان منك إلا أن ترفع صوتك بأقصى ما يستطيع: يا الله ! ثم ما تلبث أن تجد نفسك وحيدا، في الصحراء ، وقد تحررت من قبضتهم ... أين ذهبوا ؟ وكيف اختفوا ؟ لا أحد يدري ، وكل ما تعرفه أنك وجدت في نفسك القوة على أن تواصل رحلتك إلى بغداد ...

عن بعد ، بدت حافات مدينة العلم والنور، بمنائرها العالية المرتفعة إلى السماء ... بقبابها المنطوية على الخشوع والتسليم ... بخططها وحاراتها التي عرف المهندسون كيف ينفذونها بشكل يثير الإعجاب ... كان هدفك واضحا ... ليس ثمة غيره من هدف ... أن تصل المسجد الكبير الذي سيخطب فيه الشيخ ... أن تجد لك مكاناً عبر إحدى الشوارع المفضية إليه ... والتي بدأت تغص بالحضور ...

انحشرت بينهم، ورحت تنتظر عل أحر من الجمر بدء الخطاب، ولكنك ما لبثت أن فوجئت باثنين من الحضور يتحدثان إلى جوارك ...

– بعد كم من الزمن سيبدأ الشيخ موعظته ؟

– ليس قبل أقل من ساعة أو ساعتين !!

وما لبثت أن قاطعتهما متسائلا أنت الآخر: أإلى هذا الحد ؟

نظرا إليك بدهشة، وقال أحدهما:

– بل أكثر من هذا ... فقد يمتد الانتظار لعدة ساعات أخرى !! ألا ترى جماهير الناس المحتشدة ؟ أنهم يجدون أنفسهم مضطرين قبل ساعات من مجيء الشيخ، إلى الحضور لكي يجدوا لهم مكانا ... لا أقول في المسجد نفسه، فذلك أمر مستحيل، ولكن عبر الشوارع والطرقات المفضية إليه ...

وقال الرجل الآخر :

– ليس ذنبه، وحاشاه ، فإن موعده محدد لا تزحزحه عنه مشاغل الدنيا، ولكن لإعطاء الفرصة لجماهير الناس قبل أن يفوتها شيء من كلامه المدهش ...

قلت لهم ، متعمدا أن تبدو كما لو كنت لا تعرف شيئا عن سحر الشيخ:

– أإلى هذا الحد ؟

أجاب أحدهما

– على أية حال سوف تستمع لكلماته، فيتأكد لك حينذاك صدق ما نقول ...

شكرت لهما حسن إجابتهما ... وأحكمت جلوسك في المكان الذي انتهيت إليه ، وعلقت بصرك بعيداً ... بعيداً جدا حيث يقف الشيخ ليلقي موعظته التي تعرف بقوة كلماتها ، وسحرها العجيب، كيف تجعل الناس يقطعون المسافات الطوال ، ويعلقون أبصارهم بانتظار ما سيقول !!

لعبة الفنجان ...

تتداخل في ذاكرتي وقائع عجيبة، بعضها مما ألفه الناس في حياتهم اليومية ، وبعضها الآخر يشذ عن المألوف ويمضي بعيدا باتجاه العالم الغرائبي ، وبعضها الثالث ينطوي على قدر كبير من المفارقات التي تدفع الإنسان أحيانا إلى الضحك العميق وتدفعه أحيانا أخرى إلى الصراخ ... وفي أحيان ثالثة تقوده إلى البكاء !!

ذاكرتي، على إيغالي في العمر، حادة كالسكين ، ولا تفوتها شاردة ولا واردة ... خزين مترع حتى النخاع بالوقائع ، والخبرات والمفارقات ... بالضحك والبكاء ... بالهدم والبناء ... وبالصحو المشرق والسماء الصافية وبالغيوم المطبقة كسواد الليل ...

طالما آلمني هذا ... طالما مارس تدميري بالأرق المتواصل ، وأنا أتذكر هذا الموقف أو ذاك ... هذه الواقعة أو تلك، أتذكره بتفاصيله كاملة ، وبسكاكينه الحادة التي تعرف كيف تجرح وكيف تنغرز في اللحم والعظم ... وتوغل في الأعماق ...

ولطالما جأرت إلى الله سبحانه أن يمنحني نعمة النسيان ، ولكن أنى لي ذلك وذاكرتي لا تعرف الاستراحة أو النوم ، وتظل مستيقظة مفتحة العيون وهي تحمل ملقاطا دقيقا يعرف كيف يمسك بالأشياء مهما دقت وضؤلت ... فلا حول ولا قوة إلا بالله !!

دعونا من هذا كله، وتعالوا معي لكي أحدثكم عن خبراتي المتواضعة في عالم ما أطلقوا عليه اسم (تحضير الأرواح) لكي نمزح قليلا، ونخرج من دائرة الذكريات المريرة التي لا تكف عن التدفق في الذهن والفؤاد ...

يوما ، وأنا طالب بعد في كلية التربية ببغداد ، دعاني حشد من الأصدقاء لحضور إحدى جلساتهم المتكررة في تحضير الأرواح عن طريق الفنجان !!

استجبت للدعوة كي أبعد قليلا عن هموم الدارسة ومطالبها التي تعرف كيف تمسك برقاب الإنسان ... اتجهت إلى الدار الذي يسكنون فيه في منطقة الأعظمية ، فوجدتهم منكبين على لوحة كارتونية رسمت على أطرافها الحروف الهجائية كافة ، ووضع في وسطها فنجان صغير من تلك التي نشرب بها القهوة ... وجلس قبالتها شاب يسمونه الوسيط ، يخاطبون بواسطته عالم الأرواح ، يسألونها فتجيب ... يستفتونها فتمنحهم الفتوى ... يعرضون عليها مشاكلهم وأمنياتهم فيتلقون عندها كل ما يريدونه ويطمحون إليه !!

وكان الوسيط ، فيما قالوا لي، يتميز في تكوينه الاكتوبلازمي بشفافية عالية وإلا أخفق في تخاطبه مع الأرواح ...

نظرت إليه وأمعنت النظر فإذا به يتغير لونه شيئا فشيئا ويميل نحو الصفرة ، وتزيغ عيناه ذات اليمين وذات الشمال وكأنها تنظر إلى ما وراء الملموس والمنظور، ثم ما لبث أن راح يتمتم

بكلمات وتعابير خارجة عن قواميس اللغة العربية ، وكأن لا علاقة لها مطلقا بدلالاتها ومعاييرها ...

وسرعان ما انتابتني موجة من الرغبة في الضحك ، فكتمتها بصعوبة وأنا ألحظ الموجودين حولي ينظرون إلي بشزر واستغراب ، وما لبثت أن دفعت بها إلى طبقة عميقة في نفسي ورحت، وقد كسوت وجهي بملامح الجد الكامل أتابع النظر إلى اللوحة الكارتونية لكي أشاركهم الاهتمام بمشاهدتهم تلك ...

كانوا قد وضعوا وسط اللوحة فنجانا ، وسرعان ما نادى الوسيط أحدهم ، ولا أريد أن أذكر اسمه لكي لا يقودني ذلك إلى الخصومة معه والقطيعة ربما ، وهو من أعز الأصدقاء على نفسي.. فتقدم هذا ووضع سبابته على سطح الفنجان المقلوب ... وبعد دقائق من الصمت التام تحرك الوسيط وطلب منه أن يتقدم بما يريد ، أن يوجه أسئلته التي يرجو أن يحظى بالإجابة عنها من عالم الأرواح ... أن يعرض لأمنياته التي يتمنى أن تتحقق وما أن بدء الرجل بطرح سؤاله الأول حتى راح الفنجان يندفع تحت سبابته دون إرادة منه صوب الأحرف التي سيشكل بمجموعها الجواب المطلوب على سؤاله ذاك ... بينما رحنا نحن نتابع عملية تجميع الأحرف لكي نصل إلى الجملة المفيدة التي تمنحنا وتمنحه الجواب المطلوب.

ولكننا ويا – للغرابة – فوجئنا ونحن نتابع قراءة الجمل المتشكلة من الأحرف التي يدور حولها الفنجان ، بسيل من السباب القبيح والشتائم الرخيصة تنصب على هذا الرجل ، بل أنها في إحدى الجولات قررت رفع أحذية الموجودين جميعا وتقطيعها على رأسه ...

كدت أضحك للمفارقة العجيبة هذه تجاه واحد من أشد المتحمسين للعبة الفنجان هذه ، ولكنني إذ نظرت إلى الوجوه حولي آثرت الصمت لكي لا أتلقى ما لا تحمد عقباه ، وواصلت متابعة حركة السبابة اللاإرادية وهي تجول على أحرف اللوحة وتمطر صاحبنا بزخات من الكلام الفاجر القبيح!!

فما كان من صاحبنا هذا إلا أن يستجير أولا بالوسيط طالبا منه أن يكف الأرواح عن هذا العبث ... كان الوسيط في غيبوبة ، فلم يكد يسمع شيئا أو يقرأ شيئا مما كلن يدور قبالته ، عند ذاك تحول صاحبنا إلى الأرواح مباشرة لكي يخاطبها متوسلا إليها أن تكف عن هذا المزاح الثقيل وأن تقدر الرجل حق قدره وترجع إلى الجد المطلوب في جلسة كهذه ، فتجيب على الأسئلة المطروحة ، فما كان منها إلا أن تمعن في سبابها وشتائمها الرخيصة ، بل أنها ذهبت إلى ما هو أبعد من هذا فراحت تخاطبه بكل المفردات الدنيئة المعروفة في منطقة ما دون الحزام !!

وبينما أصفر لون الرجل حتى غدا بلون الشيح والكهرمان، وبينما انتفض شعر رأسه وانتصب قائما، فأعطاه منظرا فريدا في غرابته ... ما كان مني ، بل من كل الموجودين إلا أن

نطلق اسار ضحكاتنا المكبوتة التي لم تعد لقوة في الأرض أن توقفها عن أن تمضي على هواها ...

والرجل الذي يهتز انفعالا يمضي في مخاطبته الأرواح قائلا: أقسمت عليك باسم الإله الأعظم أن تكفي عن هذا الهزل ... أقسمت عليك باسم الله الذي لا إله إلا هو أن تتوقفي عن هذا المزاح !

لم تكترث الأرواح لتوسلاته واستمرت على عبثها وسبابها ونعته بأقبح الأوصاف ، ولما رأى الرجل ألّا جدوى من التوسل بها، تحول إلى موقع الهجوم ، فراح وهو يهتز انفعالا يلحق بها من السباب ما يربأ الإنسان حتى عن التفوه بمفرداته القاسية والمستمدة هي الأخرى من جغرافيا ما تحت الحزام !!

ونحن الموجودين كافة ، مستمرين على الإغراق في الضحك ... الضحك العميق ... الذي دمعت له عيون البعض بينما أضطر البعض الآخر إلى أن يستلقي على قفاه !! فما كان من صاحبنا الذي وجد نفسه فجأة يتحول إلى مسخرة، إلا أن يجمع قبضة يديه ويرمي بالفنجان بعيدا، ويمسك بالقطعة الكارتونية فيمزقها ، وهو ينظر بشزر إلى الوسيط الذي لم يتحرك البتة لإنقاذه من ورطته تلك ، ثم ما يلبث أن يحول أنظاره الصارمة والمترعة بالمقت والغضب إلينا جميعا وكأنه يريد أن يستهجن موقفنا اللا مسؤول ، وضحكنا المتواصل العميق ...

وبدأ اللغط يدور بين الأصدقاء ، بعضهم راح يواسي الرجل المنكوب بكرامته، قائلا له: ولا يهمك ... احسبها علي ... وبعضهم الآخر راح يعرب عن تشفيه بالرجل ولسان حاله يقول: ألست أنت الذي كنت ترفع دائما شعار تحضير الأرواح ، وأن الفنجان بحركته الذاتية بقوة الأرواح يجيب على المطلوب ويحل الأزمات ؟! ويحقق الأمنيات ؟

والرجل الذي لا يزال وجهه شاحبا، وشعر رأسه منتصباً ، يدير أعينه بين الطرفين كالمأخوذ ولا يجيبهم بشيء ، ثم ما يلبث أن يغادر الدار دون أن ينطق بكلمة واحدة.

بعدها بسنتين فيما أذكر، دعيت أنا وعدد من طلبة الدراسات العليا ، حيث كنا نقوم بزيارة للموصل إلى بيت أحد أعمامي ، حيث قيل لنا بأن هناك جلسة لتحضير الأرواح ... وكان بعض الأصدقاء يشكك بجدوى هذه العملية في جملتها ، فأردنا أن نصل إلى قرار في هذا الموضوع الشائك الذي يحتمل الوجهين.

قرعنا الباب بهدوء، فلما فتح لنا ، أشار لنا من فتح بسبابته إلى أن نلتزم الصمت المطبق وألا نحدث أية حركة على الإطلاق ، لأن الجلسة قد بدأت وأطفئت أضواء الغرفة ، فدخلنا – كما يقول المثل – على رؤوس أصابعنا وجلس كل واحد منا في مكان ورحنا نحدق في فضاء الغرفة، وشيئا فشيئا تبين لنا وجود الوسيط جالسا قبالة منضدة صغيرة ، ولكن دونما لوحة

كارتونية ، وجلس قبالته صاحبنا ذاك الذي سبق وأن تلقى سيلا من السباب والشتائم ، وهو يحدق في الوسيط دون أن ينبس ببنت شفة ...

رحنا نحن كذلك نمارس التحديق ، حتى إذا ما مضى شيء من الوقت ، وتحفزت الطاقة السايكوبلاتزمية على المطلوب ، تحركت شفاه الوسيط وقد جحظت عيناه وقال متوجها إلى صاحبنا الذي جلس قبالته، ماذا تريد ؟

أجاب الرجل: صورة أبي الذي توفي منذ زمن قريب !

قال الوسيط: حاضر ...

ثم ما لبث أن أمسك بالقلم والورقة وراح يرسم صورة رجل بتفاصيلها ويسلمها إلى صاحبنا ... وهو يتمعن في الورقة ما لبث أن نهض قائما وهو يصرخ: إنه أبي ... والله إنه أبي ... وراح يطوف علينا بورقته تلك لكي نتأكد من صحة دعواه.

لما جاءني الدور ورحت أعاين الورقة ، وأنا أعرف والد صاحبنا (رحمه الله) وأعرف ملامحه ، لم أكد أجد أيما شبه بين الصورة وبين الرجل المتوفي عليه رحمة الله ...

اشتعلت الأضواء مرة أخرى ودار الجدل الموصول بين المؤيدين والمعارضين ، أما أنا فكنت على قناعة تامة بأن الذين يحضرون هذه اللقاءات من عالم الأرواح ، ليسوا مطلقا من الأموات، الذين هم أكرم عند الله سبحانه وتعالى من أن يعبث بهم أحد في العالم، ولكن الذي يحضر هم الجان ... يقيناً. ولكن أي صنف من الجان هؤلاء ؟ إنهم الفجرة الكفرة الذين يحلو لهم أن يمارسوا المزاح والسخرية من أولئك الذين يطرقون عليهم الأبواب ، ويظنون أن بمقدورهم تقديم الخدمات لهم وتوصيل المعلومات الجاهزة إليهم لكي يتباهوا بها أمام الناس ، ولقد قالها القرآن الكريم في تصنيفه لعالم الجان (**وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا * وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا**) وإذا كان ثمة جدوى مما يسمى بغرف تحضير الأرواح فإنها تكمن ها هنا: التأكيد المنظور على وجود عالم آخر بين ظهرانينا ... هذا العالم الحقيقي المؤكد الذي أعترف به عشرات ، بل مئات من العلماء الكبار في ديار الغرب من خلال تجاربهم في غرف تحضير الأرواح ... علماء في الطب والفلك والرياضيات ، بعضهم ممن حاز على جائزة نوبل في العلوم.. كلهم أكدوا وجود هذا العالم ، وبالدليل القاطع ...

وإلا كيف يبيح صاحبنا ذاك لنفسه أن يتلقى سيلا من الشتائم والإهانات ، ويصبح مسخرة أما زملائه ، إن لم يكن هناك فعلا خلائق أخرى، فيما وراء المنظور ، يحلو لها العبث بمقدرات الآخرين ؟ وكيف ؟

حتى اللحظة الأخيرة

راح الرجل الموغل في العمر، والذي غطى الشيب شعر رأسه ، يصرخ في مجموعة من الشيالين: تحركوا أيها الكسالى ... أسرعوا في نقل ما تبقى من الصناديق إلى المخزن العلوي قبل أن تأتيكم السيارة الأخرى تحمل مجموعة كبيرة أخرى من الصناديق عليكم بنقلها إلى الداخل قبل أن يحل الظلام ...

نظر بعضهم إلى بعض بدهشة بالغة، فها هم يبذلون قصارى جهدهم في عملية نقل الصناديق ... لم يأل أي واحد منهم في إعمال كل قدراته الجسدية لنقل أكبر قدر ممكن من الصناديق ... وها هو التاجر الكبير يتنمر عليهم ويبخسهم ما بذلوه من تفان في العمل ... ليس هذا فحسب ، بل أنه لشحه الذي أشتهر به بين أبناء البلد ... لبخله الذي تجاوز كل حد ... سيسومهم الخسف مرة أخرى بألا يمنحهم ما يستحقون من أجر ولسوف يظل يساومهم على التنازل شيئا فشيئا عن حقهم المشروع ...

وقال احدهم: مجنون من يرجع إليك لكي يعمل عندك أيها الشيخ الحريص ...

وقال آخر: لقد جربت العمل عنده أكثر من مرة، وفي كل مرة أحاول إقناع نفسي بأن الرجل قد أوغل في العمر، ووضع أولى خطواته في القبر الذي سيلفه قريبا ... سيرجع إلى شيء من السماحة في التعامل مع الآخرين ولسوف يدفع إليهم أجورهم التي يستحقونها دون جدل أو إلحاح ... ولكن الرجل ظل على صرامته في الحرص على المال ... في رغبته العاتية بتنميته على حساب عرق الآخرين وكدحهم ... ثم ما لبث أن صرخ دون وعي منه: ملعون أبو الدنيا!!

وقال شيال ثالث: لن يشهد هذا الرجل وجوهنا مرة أخرى ... هذه هي المرة الأخيرة التي نعمل عنده ... لقد أعيتنا أساليبه الملتوية في تخفيض أجورنا ، وازدراء حقوقنا ... يا له من حرص عجيب على المال ... فها هو ذا يضع يديه على مئات الملايين من الدنانير، ثم هو يمضي بالأسلوب الجشع ذاته لكسب المزيد ... فما الذي ينتظر هذا العجوز ؟ ماذا يريد ؟ ألا يعلم أن الموت الذي لا يجامل أحدا سيخطف روحه إن لم يكن اليوم فغدا ؟ ولمن ستؤول هذه الأكداس المكدسة من المال التي انتزعها من حقوق الآخرين ، سوى لولده الوحيد الذي أفسده الدلال ، والذي قيل بأنه أقسم على الله بمجرد وفاة والده فإنه سيعرف كيف يشتت ثروته هذه بالملاهي والملذات ...

وراح رابع يدمدم مع نفسه: إنها أقبح أنواع الصفقات هذه، أن تبيع آخرتك بدنيا غيرك !

نظر إليهم العجوز بعينين تقدحان شررا وصرخ فيهم: السيارة الأخرى أوشكت على الوصول وأنكم تتلهون بالكلام التافه الذي لا يسمن ولا يغني من جوع ... شمروا عن ساعد الجد وارفعوا ما تبقى من صناديق بانتظار الوجبة الأخرى ...

تجرأ احدهم بقوله: ومن أجل هذا الذي تطلبه منا ألا يحق لنا أن نرتاح قليلا، لكي ندخر طاقاتنا لنقل ما ستأتي به السيارة الأخرى ؟

صرخ فيه العجوز: اسكت أيها الأبله ... أتريد أن تدخر طاقتك على حسابي ... لك الويل إن عدت ثانية إلى تبرير قصوركم وكسلكم ...

أراد الشيال أن يرد ، ولكن العجوز كان له بالمرصاد، فلم يعطه أية فرصة للرد ، بينما راحت تتناثر من فيه زبابيد الغضب، وسيال الشتائم والسباب ، فما كان من الشيال المسكين إلا أن يقول: علي اللعنة إن أنا بقيت عندك دقيقة أخرى، ولتذهب جهودي معك إلى الجحيم ... ثم ما لبث أن غادر المكان ...

هذه ليست أول ولا آخر مرة تشهد محلات العجوز جدلا حاميا كهذا، وهي ليست أول ولا آخر مرة ينسحب من العمل عنده هذا العامل أو ذاك ، دون أن يبذل الرجل أيما جهد لإعطائه ولو شيئا من حقه قبل أن يغادر المكان ... بل على العكس، كان يشعر بارتياح عميق وقد تخفف من دفع واحد من الأجور التي كانت يده ترتجف وهو يوزعها بمقت وغضب على العمال في أعقاب كل جولة من العمل المضني الطويل.

ما الذي يريده هذا الرجل ؟! لقد بلغت مدخراته ما يقرب من المليار دينار ... وها هو الآن يحرص بطريقة جنونية على أن يكمل المشوار فيوصلها إلى المبلغ الذي طالما حلم به في الليل والنهار ... المليار دينار، وهو خلال رحلته الطويلة المجهدة مع المال ، لم يستمتع يوما بلقمة طيبة، ولا بارتداء رداء جميل ، كما أنه لم يكترث للمتاعب التي يسببها له ركوب الباصات ذهابا وإيابا ، لأنه لم يشأ أن تكون له سيارة خاصة ...

لقد عرفته المدينة نموذجا للشح الكامل ... للبخل الذي يروى في القصص والأساطير، لإمساك النفس عن الاستجابة لأية رغبة قد تساوره في تناول وجبة طعام دسمة ، أو القيام برحلة إلى هذا البلد أو ذاك ، يرفه فيها عن نفسه ويزداد قدرة على مواصلة العمل ... لم يكن يأبه لهذا كله ، وكأن الشح الذي أمسك بخناقه جعله يتجاوزه، بمفرداته كافة، صوب شيء واحد: العمل ... العمل ... العمل ، من أجل جمع المزيد من الدراهم والدنانير ...

أتراه لم يفكر لحظة ... لحظة واحدة فقط، بأنه وقد أوشك على الثمانين من عمره ، بأن عليه أن يكف عن اللهاث المحموم وراء الأرباح ، وأن يهيئ نفسه لاستقبال الموت الذي لا يعرف متى سينزل ، وأن يفتح يده ولو قليلا مع الكادحين والعمال الذين يشغلهم عنده ، ويعتصر جهدهم حتى النخالة ... ثم هو يقف معهم طويلا لكي يناقشهم في ضرورة تخفيض أجورهم من أجل أن يضع الفارق في خزائنه المتخمة بالكسب الحرام !!

أي غباء هذا ؟ وأية غفلة عن بديهيات الحياة الدنيا التي لا تعدو ، مهما امتدت ، أو طالت ، أن تكون ساعات، مجرد ساعات ، من عمر الزمن الذي يدور فيطحن في دوامته الذين يملكون والذين يتضورون مسغبة وجوعا ؟!

ألم يحسب هذا الرجل حساب اليوم الآخر؟ الم يقل لنفسه، ولو من قبيل التذكير ، بأن هناك في الانتظار المحكمة العادلة التي لا تفلت من بين يديها صغيرة ولا كبيرة ؟

الم ينظر إلى تلويحات ابنه المدلل ، بأنه بمجرد وفاة أبيه فانه سيعرف كيف يشتت ثروته في الملاهي والملذات ؟

أهو نوع من المرض ؟ من الوسواس القهري ؟ من الحالة التسلطية التي تمسك بخناق الإنسان، فتسوقه ، ليس فقط إلى أشد حالات الشح والبخل ، وعدم الاستجابة لمطالب الحياة المشروعة ... بل إلى الكدح المتواصل الذي يصل حافات الجنون ، رغم كل المؤثرات التي تقول: كف عن هذا يا رجل ... كف عن افتراس حقوق الآخرين ... كف عن اللهاث القاتل وراء جمع دينار أكثر ، وأنت في طريقك إلى القبر ؟

لكان الذين ابتلوا بهذا الداء ، وقد وضعوا مسبقا على آذانهم شمعا أحمر، كي لا يخترقهم وهم يكدحون ليل نهار، أي صوت ينطلق من رؤية عاقلة لمعايير الحياة والموت ... لقضية الحقوق المشروعة التي إذا ما افترست فاقرأ على الدنيا السلام ...

– شدوا أيها العمال ... فها هي السيارة الأخرى قد وصلت ، وحذار أن ألحظ أيا منكم يتحدث إلى زميل له ... هذا وقت العمل ... العمل المحض حيث لا كلام ، وحيث يتحتم عليكم أن تنقلوا محتويات السيارة إلى الأعلى ... بأقصى ما تستطيعون قبل أن يحل الظلا.. .. م !!

تلجلج الرجل وهو ينطق بالكلمة الأخيرة من عبارات زجره وتأنيبه لمجموعة الشيالين ، من أجل حضهم على المزيد من الجهد ... ثم ما لبثت يداه أن راحت ترتجفان ... وجحظت عيناه ، وأصفر وجهه ، وراح يتحرك بصعوبة بالغة بحثا عن أقرب جدار لكي يتشبث به قبل أن يتهاوى على الأرض ...

أصيب العمال بدهشة بالغة ، وهم يرون ذلك الرجل الذي سامهم سوء العذاب ... ذلك العجوز الذي ملك عليه الحرص والشح سائر تصرفاته ، وكل أقواله وأفعاله ، يترنح قبالتهم ، وهو يعجز عن مواصلة الكلام ، ثم ما يلبث أن يتهاوى على الأرض !!

تراكضوا إليه كي يسعفوه ... لكي ينقلوه إلى الشارع العام كي يجدوا سيارة يقلونه بها إلى أقرب مستشفى ، لكنهم قبل أن يخطوا خطوة واحدة، كان الرجل قد فارق الحياة ...

نظر بعضهم إلى بعض بنظرات مزيج من الحزن ، والتشفي ، وكأن لسان حالهم يقول: هذا الذي كنا نخشاه أيها الرجل ... قليل من الجمع والطرح في معادلات الحياة الدنيا ... قليل من إنصاف الكادحين وإعطائهم حقوقهم ... قليل من حساب يوم الحساب ... قليل من تلبية أشواق

الإنسان المركوزة في جبلته للتمتع بطيبات الحياة الدنيا ... هذا كله لم يحدث ازاء غول البخل والشح الذي جثم على أنفاس الرجل ... على عقله وروحه ... على صيغ تعامله مع الآخرين ، ولم يبق له سوى شيء واحد: أن يظل يكدح ويكدح ... وأن يواصل حرمان نفسه والآخرين من حقوقهم المشروعة ، حتى اللحظة الأخيرة ... وها هي ذي اللحظة الأخيرة وقد جاءت دونما أي اكتراث بملايين الدنانير التي سهر الرجل على جمعها دينارا دينارا على مدى حياته التعسة كلها ...

دونما أي قدر من الاكتراث!!

الالفة الميتافيزيقية!!

أردت يوما أن أتحرر من تقاليد ما يسمى بالحياة الحديثة أو المعاصرة ، ومن روتينها القاسي ، وآلياتها المتزايدة التي تعرف كيف تمسك بخناق الإنسان وتسوقه إلى ما تريده هي لا إلى ما يريده الإنسان ... لقد أصبحت الحياة والحق يقال صعبة المذاق ... أصبحت شيئا مقرفا يمارس ضغطه المتواصل على إنسانية الإنسان فلا يتركه إلا ركاما ... لم يعد يسمح للناس ولو بشيء من ممارسة تقاليدهم القديمة ... تقاليدهم الوضيئة المترعة بالدفء والمحبة والحنان ، والتي تنطوي كل يوم على جديد غير ما ألفوه في أيامهم الماضية ... لقد أصبح الملل، والجهد اليومي المتواصل الذي يبدأ صبيحة كل يوم لكي لا ينتهي إلا عند ساعة متأخرة من المساء ، يطوق الناس في أعمالهم ودوائرهم ومؤسساتهم.. والويل الويل لمن يشذ عن هذا الروتين القاسي الذي يفترس ساعات الراحة والسعادة والاسترخاء ، بل أنه يفترس حتى فرص اللقاءات الحميمة بين الصديق وصديقه ، والزوج وزوجته ، والآباء وأبنائهم ...

يرجع المهندس أو الطبيب أو المعلم أو الأستاذ أو العامل أو المزارع أو التاجر في ساعة متأخرة من المساء، متعبا مكدورا ، تغمر ملامح وجهه الكآبة والبؤس لكي يتناول عشاءا سريعا ثم ما يلبث أن يضع رأسه على الوسادة وينام من أجل أن يلاحق مواعيد عمله في اليوم التالي وإلا فاته القطار ...

أين الأمسيات العامرة بالمحبة والمودة بين أفراد الأسرة الواحدة ، وبينهم وبين المعارف والأقرباء ؟ أين التواد وتبادل الزيارات وتعميق التعارف بين الجار وجاره ؟ وأين اللقاءات الحميمة التي يتم فيها التخطيط للرحلات الربيعية العذبة إلى براري المدينة وغاباتها ومتنزهاتها ؟ أين فنون اللعب والحماس البالغ الذي يأخذ بأنفاس اللاعبين ، وهم يبذلون جهدهم وخبرتهم للتفوق على خصومهم ؟ أين ساعات المطالعة العذبة في هذا الكتاب أو ذاك، وعبر هذه الرواية الرائعة أو تلك ؟ أين جولات التخطي اليومي في ليالي المدينة الهادئة عبر شوارعها المضاءة المغسولة برشاشات الماء ؟ بل أين الجلسات المتطاولة في المقاهي صباحا وعصرا ومساءا ؟! حيث تدور الأحاديث المتنوعة وتحل المشاكل ويتبادل الحوار ؟

أين هذا كله ؟ أين ذهب ؟ ولماذا حلت اللعنة بالحياة وساقتها إلى الاعتقال بهذا الروتين الممل القاسي الذي يسوق الناس من حيث لا يريدون ، إلى ما يريده هو ويشتهيه ... من حيث تحويلهم إلى قطعان من الأغنام تركض خلف راعيها ، وتظل تركض منذ طلوع الشمس حتى مغيبها بساعات ، لكي تزدرد علفها بسرعة ، وتأوي إلى حظائرها فتنبطح أرضا وتنام استعدادا لرحلة اليوم التالي ...

وأردت يوما أن أتمرّد على هذه المعادلة القاسية التي تمسك بخناق الإنسان ، وتجرد حياته، تجردها تماما ، من بطانتها الروحية ، فتجعل الناس يتحركون بالطول والعرض على شاشة الزمن لتأدية أدوارهم المرسومة دونما أي عمق على الإطلاق ...

أردت يوما أن أكسر هذا التقليد الجديد الذي أحكم قبضته على حياتنا المعاصرة ، وأن أغادر المدينة بعيدا إلى براريها ، عبر رحلة تصعيد روحي أتجاوز به – كما يقولون – الفيزيقا إلى الميتافيزيقا! ... فيزياء الحياة اليومية المكرورة إلى ما وراءها ... لقد كان طموحي كبيرا ... كبيرا جدا ... أكبر من طاقتي المحدودة وقدراتي المتآكلة بما لا يقبل قياسا ... ولكن كما يقول المثل: ما لا يدرك كله لا يترك جله !!

اجتزت عبر رحلتي هذه، وكخطوة أولى للالتحام بما وراء المنظور والملموس من خبرات الحياة اليومية ، التي افترستها تقاليد العصر الحديث ، حديقة الشهداء التي كانت يوما تزهو بورودها وأزهارها بأشجارها الباسقة ونباتاتها المتسلقة ... بمساحاتها الخضراء التي تحيطها باقات النرجس والبنفسج والورود الموسمية بروائحها الزكية التي تجعل الإنسان يصعّد في المراقي ويحس بأنه قد نبتت له أجنحة تمكنه من الطيران إلى فوق ... إلى أعلى ... إلى السماء الكبيرة ... وروحه تشف وترق حتى تغدو كالبلور الصافي الذي لا يصده شيء في العالم عن كشف ما وراءه من خبايا وألغاز ... أردت أن أنحني، كما فعل رسول الله (عليه أفضل الصلاة والسلام) يوما على شجرة ورد ، فأمسد عليها مرددا مع نفسي: يا ليتني كنت شجرة تسقى وتعضّد ... أن أندمج مع عالم الورد ، والخضرة ، والبهجة ، والجمال ... مع الإبداع الإلهي الذي يسقيها بماء واحد ، لكن قدرته التي لا حدود لها ، ﷻ، سرعان ما تمارس التنويع في الألوان والأشكال والحجوم ، والروائح والطعوم !!

يا له من إحساس غامر بالتخفف من أعباء الحياة التي تركتها ورائي ، من آليتها وروتينها القاسي ، وافتراسها لسعادة الإنسان وبهجته واندهاشه وفرحه ، أن تتجاوز مياوماتك التي تلفك ومن حواليك ، ساعة بعد ساعة ودقيقة بعد دقيقة وكأنك سن في ترباس كبير يظل يدور ويدور ويدور ... حتى تلفظ أنفاسك وتغادر الحياة الدنيا دون أن تأخذ منها شيئا ذا بال ...

صحيح أن حديقة الشهداء أصبحت هي الأخرى ، غير ما كانت عليه في الزمن الماضي ... تناقصت زهورها إلى حد الزوال ... وملأت البقع الجرداء المعتمة مساحاتها الزاهية الخضراء، وتيبست نباتاتها المتسلقة ، وتساقطت أشجارها الوارفة الظليلة ... لكنها ظلت – على أي حال – تنطوي على قدر من هذا كله وتمنح للهاربين من جحيم الحياة المعاصرة ، نافذة يطلون منها على عالم آخر غير هذا العالم ، ودنيا أخرى غير هذه الدنيا ...

يممت وجهي صوب ضفة المدينة اليسرى ، قاصدا حديقتها العامة ، التي أذكر يوم كنا طلبة في المرحلة الابتدائية ، كيف جاء بنا معلم الأشياء والصحة لكي يزرع كل منا نبتة في

إحدى ساحاتها ، وكيف راح يتجول بنا في أطرافها ويحكي لنا بلهجة العشاق المغرمين ، عن النرجس والورد والفل والعطر والبانسي والنزناز والقرنفل ، وهو ينحني على كل زهرة منها ويشمها بعمق، ثم ما يلبث أن يرفع رأسه منتشيا سعيدا ... وكنا نحن نتقافز بين يديه نريد أن نقلده في حركاته وسكناته ونحن نغرق في سعادة يعز وصفها ... يكفي أنه علمنا عشق الجمال!!

وأذكر كذلك تلك الرحلات العائلية الأسبوعية إلى هذه الحديقة العامرة ، حيث كانت كل عائلة تحمل معها ما تقدر عليه من مفروشات وأطعمة وأشربة ، وحيث كنا نحن الأطفال نشذ بعيدا في عمق الحديقة، لاعبين متراكضين ونحن نتصايح بجذل وسعادة ...

وأقول في نفسي: آه لو أتيح للإنسان أن يرجع إلى زمن طفولته ، ولو لدقائق أو لحظات ، كي يترع وجوده بالفرح ، والدهشة ، ومحاولات الاكتشاف، والسعادة التي لا يكدرها شيء ... آه لو أتيح للإنسان أن ينسلخ من حاضره وأن يرجع ثانية متقمصا رداء طفولته وبراءتها وعذوبتها ... آه ...

فما كان مني لحظة الاستغراق في هذا الحلم الجميل إلا أن أؤجر سيارة وأطلب من سائقها أن يجول بي ، فيما تبقى من ذلك اليوم، في براري دير مار كوركيس ، والجيلة ، وبعشيقة، والفاضلية ، وجسر مندان ... صحيح أن طلبي ذاك كان من قبيل المستحيلات إذ كيف أتنقل عبر هذه الأماكن المتباعدة في عدد محدود من الساعات ؟ ولكن نشوتي واندماجي في عالم الذكريات العذبة، جعلني أتناسى المستحيل وأصر على السائق أن يطوف بي عبر هذه الأماكن التي كانت – يوما – تزهو بالبهجة والسعادة والجمال، وحيث كانت عوائل مدينتي تفترش أراضيها الخضراء بما حملته معها من ألوان الأطعمة الشهية والأشربة والمقبلات ، وبما جلبته معها من فنون اللعب. حيث كانت الساعات تمضي ونحن الأطفال غرقى في متعة اللعب والمسابقات وتناول الوجبات الطيبة ... يا لتلك الأيام السعيدة !!

فوجئت وأنا أتجول في هذه المناطق أنها قد تحولت عن وظيفتها الجمالية التي كانت تنثرها على رؤوس المرتادين ، إلى أبنية متراصة ، يمسك بعضها برقاب بعض ... وإلى مساحات واسعة من المزابل والنفايات ... وتقلصت المساحات الخضراء ، بأشجارها وزهورها ونفلها الملون ذي الروائح المنتشية ، وبالصفّير وشقائق النعمان التي تقطر بلون الدم ، وبحليب البزّون الذي يشع بياضا !!

وما لبثت على غير وعي مني أن رحت أصرخ: أين ذهبت جماليات مار كوركيس والجيلة وبعشيقة ومندان أين ذهبت زهورها وأشجارها ومساحاتها الخضراء ؟ دون أن أتلقى سوى الصدى ...

حزينا منكسرا قلت للسائق أن يرجع بي إلى مدينتي وأنا أدمدم مع نفسي: لقد أقفلت علينا الأبواب وسدّت الطرق ، وأنسحب الوعد بالفرح والسعادة والالتحام بالبهجة والجمال. سدت علينا

تماما فلم يبق أمامنا سوى ممر واحد للعبور واجتياز ما تبقى لنا من حياتنا الدنيا وفق ما تريده لنا مواصفات العصر الجديد لا ما يتمناه ويشتهيه الإنسان ...

أن أرجع ثانية لكي يأسرني المنطق الحديث، بكل ثقله وعتمته، وتكراره البليد ، وروتينه القاسي ... أن أدور كما يدور الناس ... وأن أستهلك أيامي وسعادتي كما يستهلكها الناس ... وأن أساق إلى العمل اليومي المكرر الذي يبدأ مع ساعات الصباح الأولى ولا ينتهي إلا في ساعات المساء المتأخرة ، وقد تركنا ركاما ...

إزاء هذا الكابوس الذي يلف الحياة والأحياء أقول في نفسي: ماذا يجدي الإنسان في أن يتجاوز غلظة الفيزياء وصرامتها وقهرها الذي لا راد له إلى ما وراء الفيزياء ... إلى الميتافيزيقا لكي يستذوق حلاوة الحياة ويعيشها كما أراد لها الله سبحانه أن تكون، مترعة بالنشوة والسعادة والبهجة والاكتشاف ؟!

فها أنا ذا أرجع من رحلتي تلك بائسا منهكا وأنا اردد مع نفسي: ليس ثمة بعد اليوم خروج على منطق الفيزياء والذهاب بعيدا بعيدا إلى ما وراءها ... ليس ثمة بعد اليوم من خروج !!

المنجل السحري

أودُّ لو أن الله سبحانه وتعالى ينعم علي بمنجل حاد لكي أقطف به رؤوس الملعونين من حيث أراهم ولا يروننني ... ظل هذا الحلم البعيد يراود نفسي السنين الطوال وأنا أرى حكام العالم وطواغيته الكبار يزدادون عددا يوما بعد يوم ، ويزداد معهم ظلمهم للمستضعفين في الأرض وجبروتهم ضد الشعوب التي تتعرض لسكينهم التي لا ترحم ورغبتهم الهائلة في التدمير والتفكيك والإفناء ...

منذ زمن بعيد ، لا أذكر بداياته الأولى هيمن على جملتي العصبية ... على عقلي وروحي ووجداني ... على تمنياتي ورغباتي، هذا الحلم الذي طالما بذلت جهدا قاسيا في مدافعته ، في جعله – على الأقل – يتراجع إلى طبقة عميقة موغلة في نفسي لعلي أنساه !!

المنجل الحاد الذي اقطف به رؤوس الملعونين من حيث أراهم ولا يروننني ... وأن أمضي مدوّما به قبالة كل أولئك الذين مارسوا ، دونما أي قدر من تعذيب الضمير، ذبح الأمم والشعوب!!

ويوما ، وأنا اجلس تحت الشمس في حديقة بيتي الصغيرة حيث يلف المدينة برد قاس يلجئ الناس للهروب إلى دفء الشمس والاستلقاء تحت ما تمنحهم إياه من استرخاء ... إذا بشخص غريب الشكل ، عجيب القسمات ، يبرز قبالتي ... شخص بلغ من ضخامة جسمه أن حجب عني أشعة الشمس ، وهو يقهقه بصوت ارتجت له جدران البيت ويرفع يديه العاريتين صائحاً: سل ما تريد فإنني جاهز لإعطائك إياه !!

أمعنت النظر فيه بدهشة بالغة ، وأنا أكاد أرتجف من الخوف والبرد ... وحتى أدفع هذا الكابوس المخيف عني قلت له ، توسلت إليه ، أن يكف عن هذا المزاح القاسي وأن يدعني وشأني ...

– عجيب أمرك أيها الرجل!!

قلت متوسلا: أرجوك أن تكف عني وأن تمضي لسبيلك ، فقد تجد غيري ممن يتمنى مساعدتك هذه !

– ولكنك أنت الذي أريد ...

– أنا ؟!

– نعم أنت ... ألست من كنت تحلم السنين الطوال بأن ينعم الله عليك بالمنجل الحاد لكي تمضي به في مشارق الأرض ومغاربها ، فتقطف رؤوس طواغيتها من حيث تراهم ولا يرونك؟

تذكرت حلمي القديم الذي لا يزال يضغط علي من أجل أن ألبي طلبه ، فأجبت العملاق بنبرة فيها التوسل والرجاء الممزوج بقدر هائل من الخوف ...

– بلى أنا ...

– إذا ها أن ذا أضع بين يديك المنجل المطلوب ... وعليك أنت الباقي ...

– إنني لا أدري كيف أشكرك. أيها الـ ...؟ فها أنت ذا قد أبلغتني حلمي الذي ظل يعذبني السنوات الطوال ...

– إياك أن تقول: أنت ... إنما هي إرادة الله وحده ...

– جل جلالك يا الله ...

وما لبث الرجل أن سحب من جيب سرواله الفضفاض منجلا لامعا ، وسلمني إياه واختفى عن العيان ...

أمسكت بالمنجل ، ورحت أحركه ذات اليمين وذات الشمال متباهيا بشفراته الحادة وببريقه الذي يبهر الأبصار ... وقلت في نفسي: ليس ثمة أي مجال للتردد والتسويف ... إنها الفرصة التي حلمت بها طويلا وعلي أن أشمر عن ساعد الجد وأبدأ العمل ... ولكن وسواسا لعينا سرعان ما هيمن علي وجعلني أتردد قليلا ... فمن الذي يضمن وأنا أعمل منجلي الحاد هذا في أعناق الطواغيت ، ألا يروني فيحركوا ضدي كل أجهزتهم ومخابراتهم وتقنياتهم المدهشة ويشلوا قدرتي على الذبح، ثم يجهزوا علي لكي ما ألبث أن أصبح خبرا من الأخبار المثيرة التي تعرف كيف تتلقفها وتبالغ في تفاصيلها وكالات الأنباء وإعلاميو الصحف والمجلات والفضائيات ؟!

وأنا أقدم رجلا وأؤخر اثنتين ، اجتاحت الفضاء المحيط بي قهقهة عالية ارتجت لها جدران الدار وأصابتني بموجة من الرعب يصعب وصفها ... وإذا بالقهقهة تخفت شيئا فشيئا ، ويقول الصوت الذي سرعان ما أدركت أنه صادر عن هذا العملاق ...

– نحن لا نمزح معك أيها الجبان المتخاذل، فإنما أعطيناك المنجل الحاد وأعطيناك معه الحماية التامة من ألا يمسك أحد معها بسوء ... فأمض على بركة الله ولسوف ترى النتائج بأم عينيك !!

طوحت بالمنجل في الهواء ، وغادرت المكان ، متناسيا البرد ودفء الشمس الواعد بالاسترخاء ومضيت مسرعا إلى أهدافي، فليس لي بعد اليوم سوى مهمة واحدة ... واحدة فقط ... أن أقطف بمنجلي هذا رؤوس الملعونين ...

كان أول ما خطر على بالي هو الانتقام من المدعو (بوش الابن) الذي لا أعرف كيف أصبح دون غيره من مئات الساسة وألوفهم ، رئيسا لأقوى دولة في العالم، وهو ذلك المعتوه، المتخلف عقليا الذي فشل في إتمام دراسته والذي كان يرى وهو يتمايل في الشوارع خارجا من هذا البار أو ذاك ، ورائحة الخمر التي تخرج من فمه تزكم الأنوف ، فيحمله أصدقاؤه عائدين به إلى البيت ...

إنها والله مفارقة كبرى ، أن يرسو مؤشر الانتخاب الذي شارك فيه ملايين الأمريكيين على هذا المعتوه من دون غيره من مئات الساسة وألوفهم ممن تعج بهم الولايات المتحدة الأمريكية ... ولكن سرعان ما تبين لي أن الذي يمسك عصا الترشيح ليس الشعب الأمريكي ، وإنما المافيات الاقتصادية واليهودية التي تتحكم بمصائره ومقدراته ونقوده بقوة المال وإغواء الجنس إلى اختيار هذا الرئيس أو ذاك !!

وبتصريح خطير يعكس بلاهته قال بوش بعد واقعة الحادي عشر من أيلول ، وقد أصبح رئيسا: أنها الحرب الصليبية تشتعل مرة أخرى ضد عالم الإسلام، وراح، والمافيات الإنجيلية الصهيونية الجديدة من حوله تنفخ فيه وتحضه على تنفيذ وعده بسحق الشعوب المستضعفة في أفغانستان والعراق ، ورغم أن كل الأصوات العاقلة من زعماء العالم ، وقادة أمريكا أنفسهم ، وشعوب الأرض ، والشعب الأمريكي نفسه ، أعربوا عن رفضهم شن الحرب على العراق ، بعد أن تبين لهم كذب امتلاكه للأسلحة المحرمة دوليا ، فانه مضى يلوح بسكينه الحادة ، بصواريخه العابرة للقارات ، وبطائراته العملاقة التي تحمل الويل والدمار، لكي يسحق العراق ويدخله في دوامة حرب طائفية قاسية لم تترك صغيرة ولا كبيرة إلا أتت عليها ...

لقد أشعلها هذا المخبول إذن عبر واحدة من أكبر الأكاذيب في التاريخ البشري وأشدها شناعة ، وترك العراق يعاني من الدمار أكثر من أربعة عشر عاما ولا يزال ... وهو ، بوش الابن هذا، بعد أن انتهت ولايته الأولى ، ينتخب مرة أخرى ، فيما يؤكد بالدليل القاطع أنه لا يعدو أن يكون لعبة بيد المافيات اليهودية والاقتصادية ... ودهاقنة الإنجيلية التي ربطت مقدرات المسيحية باستمرار قيام إسرائيل لاستقبال نزول السيد المسيح (عليه السلام) أولئك الذين ملئوا أروقة البيت الأبيض بصقورهم وحمائمهم على السواء ...

مرة أخرى يعود هذا المخبول لحكم العالم حيث أصبحت الولايات المتحدة، بعد زوال الاتحاد السوفيتي القطب الأوحد في الدنيا ، وأصبحت سياساتها المستمدة من قاموس (هوبز) هي السياسات التي ترى أن الدولة العظمى إذا ما أرادت أن تهيمن على مقدرا ت العالم وأن تكون كلمتها مسموعة من القاصي والداني ، فان عليها أن تطيل أنيابها الذرية لكي تمزق بها أجساد الأمم المستضعفة في الأرض ...

بعدها انسحب هذا الرئيس الدمية من البيت الأبيض عائدا إلى بيت (بابا وماما) كما كان يحلو له أن يتدلل عليهم ، دون أن ينتابه ، ولو لحظة واحدة، شيء من الإحساس بالندم على ما اقترفته يداه بحق الشعبين الأفغاني والعراقي ...

– خذها مني أيها السيد الرئيس!!

كان مستلقيا على كرسي هزاز في حديقة الدار وقد أغمض عينيه في محاولة منه أن يتخلص بعض الشيء من حر الشمس ، ومما قد تدفع إليه من النعاس ...

أحسست لحظتها أن جسدي يرق ويرق ثم ما يلبث أن يغيب عن العيان ولا يتبقى منه سوى يد قوية تقبض على منجل حاد يلوح في الهواء !!

– خذها مني أيها الرئيس المخبول ...

أجفل بوش وهو يهم بالنهوض محدقا برعب يصعب وصفه بهذه الآلة الحادة التي تلوح في وجهه، ولكنه، وكأنه أصيب بالشلل ظل في مكانه دون حراك ...

– خذها مني أيها الدجال ...

وانقضضت عليه، أمسكت بخناقه، ضغطت عليه حتى جحظت عيناه، وقبل أن انزل المنجل في عنقه ... صرخت فيه: لقد ذبحت شعبين مستضعفين، متغطيا بكذبك، وأساطيرك الدينية، وخرافاتك، ومن حولك دهاقنة المال من الزعماء واليهود يدفعونك إلى ما يريدون هم كأنك دمية في أيديهم لا حول لها ولا قوة ...

أنت لا تستحق الحياة التي استللتها بالكذب والخطيئة من ملايين الناس ... فخذها مني ...

وأحسست وأنا أنزل منجلي الحاد في عنقه فأجزه من اليمين إلى اليمين ، بأني قد ألقيت عن نفسي عبئا ثقيلا ظل يجثم على أنفاسي السنين الطوال ...

وما لبثت أن غادرت المكان مزيحا بقدمي الرأس المقطوعة ومرددا: ها هو ذا الحذاء الآخر الذي تتلقاه من العراقيين، بعد أن كنت قد تلقيته حيا في بغداد ... وقلت في نفسي: غدا إن شاء الله سيكون موعدك مع جزار آخر شارك في ذبح وتشريد شعب بكامله ... بوتين ، ولسوف أعرف كيف آخذ رأسه بمنجلي هذا ، فلعلي بذلك أنقذ ما تبقى من شعب سوريا من الضياع إلى الأبد ...

ورحت وأنا أحرك منجلي ذات اليمين وذات الشمال، أردد: أن موعدنا الصبح يا بوتين ... أليس الصبح بقريب؟!

المستحيل ...

وحدك تماما ، متعلقا على سطح لوح خشبي صغير وسط محيط هائل في امتداده ، حيث لا ترى له بداية ولا نهاية ... مياهه يميل لونها إلى السمرة الطينية ... هادئة تماما ، فيما يزيدك خوفا ورعبا ... تمد بصرك إلى البعيد فلا تجد إلا الماء الأسمر الصامت ، فتديره إلى الجهة الأخرى ، فلا تجد إلا الماء الأسمر الممتد إلى ما لا نهاية ...

وحدك تماما وسط محيط يمتد عبر جهاته الأربع إلى ما لا نهاية ... بمائه الطيني الأسمر ... بسطحه الهادئ تماما مما يزيدك خوفا ورعبا ... لو أن يتحرك قليلا ... لمنحك شيئا من الاطمئنان ، لكن سكوته المطلق حيث لا أحد معك ... لا أحد على الإطلاق ... يزيدك رعبا وهولا ...

وأنت تتشبث بلوح الخشبة الصغير الذي لا تدري من أعطاك إياه ؟ من سلمه إليك لكي تواصل الحياة ...

أية حياة هذه، والخوف من المصير يأخذ بخناقك ، يشدد قبضته عليك ويجعلك تتشبث أكثر فأكثر باللوح الصغير ... بانتظار ماذا ؟

غابت عن عينيك ملامح الزمان والمكان ... ردمت في وعيك الفوارق التي يعرفها الناس بين دقيقة ودقيقة ، وبين مكان ومكان ... تتساوى الأشياء ، الدقائق والأماكن ... تضيع تماما ولا يتبقى سوى هذا الامتداد اللانهائي المخيف للمحيط الذي يزيد سكونه المطبق ، وسمرته ، وصمته الأبدي ، من إحساسك بالغربة يزيد من رعبك وأنت تجذف على غير هدى ذات اليمين وذات الشمال دونما هدف تقصد إليه على الإطلاق ... وأين تجد هدفك وقد غابت كل المعالم والأشياء، ضاعت التفاصيل التي يتكئ عليها الناس في رحيلهم إلى أهدافهم، بصغيرها وكبيرها ... اختفت إلى الأبد، ولم يتبق أمامك سوى هذه المساحة الممتدة إلى ما لا نهاية من المياه السمراء التي لا تأمل أن تلقى فيها أحدا ... شيئا ... معلما ... مؤشرا يقودك إلى ما تتمناه ... يعينك على الخروج من ورطتك هذه ... يأخذ بيدك لكي يمضي بك إلى حافات الأمن الذي يبدو انه قد ضاع إلى الأبد ...

وحدك ... وحدك ... وحدك ... محاصرا بالرعب الذي يصعب وصفه ... بالإحساس بأنك بعد ساعة أو ساعتين ، وربما بعد دقيقة أو دقيقتين سترتخي يداك عن الإمساك باللوح الخشبي ، وتغوص وحيدا منفردا ... إلى الأعماق ...

ومن أجل أن تبعد عن خاطرك المهوش هذا المصير المفجع ، رحت تتشبث أكثر فأكثر، باللوح الخشبي ، عله يطيل أمد حياتك ... فمن يدري ، قد تبرز على حين غفلة ما لم تكن

تتوقعه من سبل الخلاص ؟ من يدري، فقد تجد نفسك فجأة قبالة مركب ما ، مجموعة من الآدميين الذين نسيت ملامحهم ... إنسان ما ضائع مثلك، قد يعينك على الخلاص ...

وتدير أنظارك حواليك، وأنت لا تعدو أن تكون نقطة تائهة وسط محيط هائل ... هائل ... وممتد بعيدا بعيدا ... علك تعثر على المطلوب ... مجرد حلم ... أمنية مستحيلة وسط هذا الخضم ... ولكن ليس ثمة ما تملكه غير الأحلام والأماني ... إنها نافذتك الوحيدة التي تطل منها على الدنيا التي تكاد تتهاوى أمام عينيك ، إن لم تكن اللحظة الراهنة فالتي تليها ... ليس ثمة غير الأحلام والأماني ما يمكنك من إدامة حياتك المترعة بالرعب والخوف ... دقائق أخرى ... مجرد دقائق ... تغوص بعدها في أعماق محيط منذر بالويل ، لا تدري أين ينتهي بك وأنت تغوص في أعماقه ... منتظرا خلاصك الوحيد ... أن يستقر جسدك الذي فارق الروح في أعماق المحيط ... فترتاح ...

وحدك ... حيث لا أحد معك على الإطلاق ... قبالة هذا الغول المترع بالبشاعة والذي يحيط بك من أطرافك الأربعة ... حيثما تلفّت ، حيثما أدرت أنظارك ... حيثما جدفت فيما تبقى لك من قوة ... فانك ستجد نفسك دائما في مكانك تماما ... لم تتحرك شبرا واحدا ، وعلام تتحرك إذا كان المحيط قد أطبق قبضته عليك، فلم يدع لك أيما ثغرة قد تنفذ منها بحثا عن الخلاص؟!

ومن أجل شيء ... شيء تافه حقير لتغيير وضعك المستحيل هذا ... رحت تدور على نفسك وأنت متشبث بلوح الخشب ، دورة في أعقاب دورة في أعقاب دورة في أعقاب دورة ، حتى تملكك الصداع ، وانتابك الغثيان ، وأحسست كما لو أنك تتمنى أن تلفظ أمعاءك ... ثم ما لبثت أن تذكرت أنك أنت السبب فيما الم بك ... فعلام هذا الدوار الذي لا معنى له على الإطلاق ، وسط تلك المساحات اللانهائية من الماء الأسمر والساكن ، التي يبدو أنها هكذا منذ الأزل ؟ علام هذا الدوران ، وإلى أين كان يمكن أن يقودك غير مزيد من الرعب، واليأس ... من أن يخرجك عن توحدك القاسي ... توحدك المترع بالغرابة، والعزلة ، وسط هذا المحيط الذي لن تجد فيه أحدا ... أو حتى شيئا على الإطلاق ؟!

وتتمنى على نفسك، بعد إذ فقدت الأمل بأن تجد كائنا حيا عبر هذه الفلاة الموحشة ... أن تجد ولو شيئا ما ... أي شيء على الإطلاق ... المهم أن تتحرر للحظات من وحدتك القاتلة هذه، وأن تجد ما يعينك، ولو كان هذا الشيء قطعة من حجارة أو خشب ... أو أي شيء على الإطلاق ...

لكنه المستحيل الذي كتب عليك أن تدخل أسره الذي لا يرحم أحدا ... أن تظل وحيدا ... وحيدا ... وحدك، وأنت متشبث بلوح خشبي صغير ، دونما أي أمل بالعثور على إنسان أو شيء على الإطلاق ...

وما لبثت الذكريات أن راحت تتداعى على وعيك الباطن ، وأنت تقول في نفسك: ما الذي جعلك تتناسى هذه البوابة الكبرى للخروج من البئر العميق الذي تخبطت فيه الساعات الطوال ؟ راحت الذكريات تتداعى ... الزوجة ... والأطفال ... العمل ... والمشاريع اللانهائية ، والأرباح المتدفقة في جيوبك وخزائنك بغير حساب ... بالحلال والحرام ... وبالحق والباطل ... الركض اللانهائي من أجل المزيد من التحقق بالفرص المتاحة والمباحة ... وبغيرها مما يخرج عن المتاح والمباح ... اللهاث حتى تتقطع الأنفاس وراء منفعة أكثر ... مصلحة تدر ربحا غزيرا ... تملأ به جيوبك وخزائنك ... وأنت تريد المزيد ... ثم أخيرا تجد نفسك تغادر هذا كله عبر رحلة بحرية تعرضت سفينتها للغرق ... وحيدا ... متشبثا بلوح خشبي صغير منفلت من بقايا تلك السفينة المنكودة التي التقم المحيط كل ركابها ... إلا أنت ؟!

ما هذه المفارقة القاسية التي وجدت نفسك بطلها الوحيد ؟ ما دلالتها ؟ ما الذي تريد أن تخاطب به كل أولئك الذين أفنوا أعمارهم بحثا عن المال، فتجمع لديهم أكداسا أكداسا ... وعلى حين غفلة ... على حين غفلة تماما ... ارتخت أيديهم عن الإمساك به ، تركوه وراء ظهورهم ... وها هم الآن يجذفون وحيدين دون أن يحملوا معهم درهما واحدا قد يعينهم على مواصلة التجذيف ... قد يلبي شيئا من أشواقهم التي تعرضت على حين غفلة للانتحار!! أيها الإنسان الضائع في عرض المحيط، ينتظر لحظة غرقه في أعماق المياه ... بعيدا عن الأهل والأطفال ... بعيدا عن المشاريع والأعمال ... بعيدا عن الذهب والفضة والخزائن المترعة بالأموال ... بعيدا عن أصحابه الذين أغروه بسلوك الطرق الملتوية للحصول على المزيد ... بعيدا عن ملذاته وشهواته التي شهدت الدنيا فسقها ، وعربدتها المجنونة ... ولياليها الحمراء ... بعيدا عن هذا كله ... وحيدا أعزلا وسط المحيط الذي لا أول له ولا آخر ... متشبثا بلوح خشبي تافه صغير ... بانتظار مصيره الكالح ... حيث لا أمل ... لا أمل مطلقا، في يد تبرز له من ثنايا الغيب لكي تنتشله من الورطة الكبرى التي وجد نفسه فيها ... منتظر برعب هائل لحظة الخلاص ؟!

الأعراف ...

سعيدا بحصولك على مكان رائع في الجنة الدنيا ، فيما لم تكن تطمح بالحصول عليه ، فأخطاؤك كثيرة ... كثيرة ، وإن لم تكن قد تجاوزت اللحم إلى الكبائر، وحاشا لله، ولكنها رحمة الله التي وسعت كل شيء ... نظرت إلى جدار عالٍ يفصل الجنة الأولى والتي تعلوها عما وراءهما ، وأمعنت النظر متسائلا: ما هذا ؟ وعلام يقف عليه جملة من الرجال يديرون أبصارهم على جانبي الجدار ويتحدثون بصوت لا يكاد يصل إليك ؟

أنصت جيدا لعلك تسمع ما يقولون، فإذا بهم يوجهون إلى أصحاب الجنتين تحيات مترعة بالود والمحبة والتقدير ، ثم ما يلبثون أن يوجهوا أنظارهم صوب الجانب الآخر ويجأرون إلى الله ألا يجعلهم مع القوم الظالمين ...

حينذاك أدركت أن هذا الجدار العالي يفصل بين أهل الجنة وأهل الجحيم ، وأن الرجال الذين يقيمون عليه انفسحت أمامهم الرؤية لكي يطلعوا على الجانبين معا ...

للحظات تمنيت أن تكون معهم ... مجرد حلم مر بخاطرك ... حلم صعب التحقيق ، ولكنها الأمنيات التي لا يحجزها شيء عن اختراق وعي الإنسان والتمركز فيه ... أن تكون معهم لكي تطل من هناك ... من أعالي الجدار على ما تشهده جهنم من ويلات !!

ولدهشتك فوجئت بمن يرفعك إلى الأعلى، ويضعك إلى جوار رجال الأعراف هؤلاء ... تملكك فرح طاغ يصعب وصفه، فأنت قد قرأت في كتاب الله الكثير الكثير مما ستشهده جهنم من أنماط العقاب ، وعما سيحيق بأصحابها من عذاب يفوق قدرة الكلمات على وصفه ، ولكن كما يقول المثل: (ليس الخبر كالعيان) و(ليس من جرب كمن لم يجرب) ... فها أنت ذا تطل مباشرة إلى أسفل الجدار فترى بأم عينيك العجب العجاب !!

وسمعت أصحاب الأعراف ينادون رجالا يعرفونهم بسيماهم:

– ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون ! أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة؟!

ثم ما يلبثون أن يوجهوا أبصارهم صوب أصحاب الجنة قائلين:

– أدخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون !!

وسرعان ما تذكرت، وأنت تنصت لكلامهم كيف كان طواغيت العالم يتباهون بالجموع الساحقة التي استعبدوها وجعلوها تعبدهم من دون الله ... وكيف كانوا يستكبرون، بما كانوا يملكونه من قوة وسلطان وجبروت ... وتذكرت إلى جانب هؤلاء، تحدي الله سبحانه لجبروتهم وجموعهم الحاشدة في سورة اقرأ **(كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ * فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ)** ، حيث تتضاءل كل تلك القوى الزائفة من الجماهير الخاضعة ، وقوى الجيوش ، وحشود المخابرات، والبوارج العملاقة ، والطائرات القاصفة ، والصواريخ العابرة

للقارات، أمام الزبانية الذين سيلوون أذرع الطواغيت والأرباب ، ويدسون أنوفهم في نار جهنم ورمادها ...

وما لبث تيار وعيك أن أنقطع وأنت تنصت لنداءات أصحاب النار أصحاب الجنة:

– أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله ...

ويجيء الجواب الذي لا يسمح بلحظة واحدة من الإلحاح في الطلب:

– إن الله حرمهما على الكافرين. الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا ، فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون ...

وجدتها فرصة للبقاء أطول وقت ممكن في أعالي الأعراف لكي تشفي غليلك برؤية ما يعانيه طواغيت العالم وجبابرته ، ومجرموه ، وقتلته ، من أنواع العذاب ...

لحظت مجموعة منهم ، وقد أعتصرها الجوع، تتقدم مرغمة لكي تتناول طعامها القاسي من شجرة الزقوم التي نبتت في أصل الجحيم ، بطلعها الذي يشبه رؤوس الشياطين ، فتملأ بطونها من دغلها وحسكها ومرارتها التي لا تطاق ... ثم وقد اعتصرها العطش ولفح النار، تنكب كالسوائم على شرب شوب من جحيم ... ثم تنتهي دعوة طعامها وشرابها البائس ذاك بعودتها ثانية إلى الجحيم !

وتلك مجموعة أخرى من أولئك الذين حق عليهم العذاب ... جهنم يصلونها فبئس المهاد ... هذا فليذوقوه حميم وغسّاق وآخر من شكله أزواج ... وهم يتخبطون في نار جهنم ورمادها ، يشتعل هذا الحوار بين الأرباب وبين عبادهم في الحياة الدنيا:

– هذا فوج مقتحم معكم لا مرحبا بهم إنهم صالوا النار

– بل أنتم لا مرحبا بكم، أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار!!

– ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابا ضعفا في النار ...

– ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار ؟ اتخذناهم سخريا أم زاغت عنهم الأبصار؟!

جمرات المقت والغضب والرغبة العاتية في الانتقام من هؤلاء الطواغيت الذين أمسكوا بخناق شعوبهم في الحياة الدنيا ، ها هي الآن تتلقى الجواب ... كماء بارد زلال يغسل ما في القلب من مرارات وأوجاع ... ها أنت ذا ترى بأم عينيك مصائر أولئك الذين استعلوا على شعوبهم بالقهر والإذلال ، لم يتلفتوا لحظة واحدة، إلى النذير الإلهي المتكرر في كتاب الله وكأنه الحقيقة الأولى والأخيرة ، وما وراءها عبث ولهو ولعب وزينة ... ذلك النذير الذي أصبح لتكراره والتأكيد المتواصل عليه ، بمثابة (الثيمة) القرآنية التي تؤول إليها كل الأفعال والممارسات ... فحيثما تلفتت في كتاب الله ، حيثما تابعت آياته البينات وهي تتحدث عن هذا الأمر أو ذاك ، وجدتها تدير المنظور فجأة إلى يوم الحساب وكأنه حاضر اللحظة ، بكل ثقله وعنفوانه، كأنه الحقيقة الوحيدة في هذا الوجود ، وما دونه باطل الأباطيل وقبض الريح ...

وصرخت بأعلى صوتك: أيها الأغبياء ... أيها الطواغيت والأرباب المزيفون ... الذين غطوا أعينهم عن رؤية هذا المصير المفتوح ... المصير المؤكد ... المصير الواقع كأنه اللحظة القائمة ... أيها المغفلون الذي لم ينتبهوا إلى خرافة الحياة الدنيا ... والله إنها لخرافة ... عشية أو ضحايا ... ساعة من زمان ... حفلة تعارف لا أحد يتبن فيها ملامح وجوه أولئك الذين تعرف عليهم أو يتذكر أسماءهم ... لقد نبهكم كتاب الله إلى هذا ، ولكنكم لم تنتبهوا ... لم تكلفوا أنفسكم عناء الالتفات ولو للحظات إلى هذا الخطاب القرآني الذي ينطوي على مغزاه الواضح ... المبين ...

وتذكرت، وأنت تقلب أنظارك في جموع القطعان المتخبطة في قعر جهنم ... طعامها من غسلين ... فاكهتها من شجر الزقوم ... شرابها من شوب الحميم ... وهي تتوسل بأهل الجنة أن يفيضوا عليها شيئا من ماء ، يبلون به ريقهم المتيبس، أو شيئا من طعام يغسلون به مرارة الشوك والحسك الذي جرح حلوقهم ... تذكرت كيف كنت وكل أصدقائك ومعارفك الذين أدركوا أبعاد المأساة ، تنتظرون بصبر فارغ اليوم الذي سيسوق كل الطواغيت والقتلة ، إلى مصائرهم المفجعة هذه ... فها هو ذا الجواب القاطع الحاسم الذي لا ريب فيه، يأتيكم هنا ، حيث ترون بأم أعينكم ما حاق بأولئك الظالمين من قهر وبؤس وإذلال وجوع وعطش كانوا قد مارسوا فرضه على شعوبهم لكي يرغموها على لوي رؤوسها ويحولوها إلى مجموعة من القطعان ... ولكن كم من الزمن تمتع أولئك الفجار ، الذين ظنوا أنهم لن يموتوا ، بتسلطهم وجبروتهم هذا ؟ مجرد ساعة من نهار ... يوما أو بعض يوم ... عشية أو ضحاها ، ثم سيقوا إلى مصائرهم المفجعة حيث اليوم الواحد كألف سنة مما نعدّ ... كخمسين ألف سنة، فيما يساوي ثمانية عشر مليونا ومائتين وخمسين يوما أرضيا ...

يا لبؤس هؤلاء ... ولكن مهلا، ولن تسمح لخواطرك المترعة بالألم والمفارقة أن تجرفك بعيدا عن رؤية هذا الذي أتيح لك أن تشهده بأم عينيك ... فلتمعن النظر فإنها فرصتك التي قد لا تتاح لك مرة أخرى ...

ها هم الضعفاء والعبيد، الذين ارتضوا المهانة في الحياة الدنيا، يتحاجون في النار ، فيقولون للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار ؟ وسرعان ما يتلقون الجواب القاطع: **{ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ }** (غافر ، الآية ٤٨) !! ثم ما يلبث هؤلاء أن يعلنوا تبرؤهم من الأتباع و الأذناب ... نفس الاستعلاء الذي مارسوه في حياتهم الدنيا ... نفس التكبر والاحتقار ... نفس الاستخفاف **(إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ . وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ)** ... السادة والعبيد ... كلاهما محكوم عليهما بالإعدام ... بالبقاء الأبدي

في نار جهنم ... أولئك بقهرهم وطغيانهم وجبروتهم ، وهؤلاء بذلتهم ومسكنتهم وقبولهم الأمر الواقع ...

ثم ما تلبث أن تتلقى حوارية أخرى بين الطرفين حيث (**يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ**) ، فيردّ استكبروا: (**أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ؟**) ...

أيها الأغبياء ... أيها الطواغيت الذين تصورا بمجرد امتلاكهم السلطة بأنهم سيخلدون فيها ... أيها القطعان العمياء التي لا ترى بأبعد من مواقع اظلافها ... ألستم أنتم الذين مارستم وضع الأغلال في أيدي وأقدام شعوبهم لكي يرغموها على الطاعة ؟ ألستم أنتم الذين كممتم الأفواه كي لا تصدر عنها نأمة نقد لممارساتكم السافلة ؟ فها أنتم الآن تتلقون العقاب الذي هو من جنس عملكم: الأغلال التي تشدّ على أعناقكم لكي تمرغها في نار جهنم ورمادها ؟!

وتواصل الإنصات ، فإذا بالضعفاء والمستعبدين يرفعون شكواهم إلى الله سبحانه وتعالى ... يجأرون إليه أن يضاعف عذاب أولئك الذين استعبدوهم في حياتهم الدنيا: (**رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ**) ويجيء الجواب الحاسم القاطع: (**قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون**) ويرد الذين استكبروا **{وَقَالَتْ أُولاَهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ }**(الأعراف ، الآية ٣٩) ...

ومرة ثالثة ورابعة وخامسة: **{ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا{٦٧} رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً{٦٨}** (الأحزاب ، الآية ٦٧-٦٨) **{وَبَرَزُواْ لِلّهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللّهِ مِن شَيْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَانَا اللّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاء عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ }**(إبراهيم ، الآية ٢١) ...

إنه زمن الاعتراف، حيث لا يخفى على الله شيء في الأرض ولا في السماء ... وسواء أكان هؤلاء المخدوعون بزخرف الحياة الدنيا وزينتها من الأرباب والطواغيت، أم من العبيد والمستلبين، فالنتيجة واحدة أنهم جميعا مأخوذون بجرمهم المشترك ... أولئك بفجورهم وطغيانهم، وهؤلاء بتذللهم وطاعتهم وانقيادهم للباطل خوفا وتملقا ... وتسمعهم وهم يقسمون بالله ، معترفين بذنبهم الكبير (**تالله إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ . إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ . وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ**) ... ويدور بينهم وبين الملائكة، لحظة الانفكاك من أسر الحياة الدنيا ، هذا الحوار الموجز الذي يحمل دلالته التي لا ريب فيها ولا مماحكة ولا جدال: (**إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ**

ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا: فِيمَ كُنْتُمْ؟ قَالُوا: كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ . قَالُوا: أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا).

ولا يظنّن الطواغيت أن تسلق السلطة أو القفز عليها بالدبابة أو المؤامرة أو الانقلاب العسكري ، هو ميزة لهم يتباهون بها أمام أنفسهم وأمام أتباعهم المعجبين ، إنما هي الاستدراج الإلهي الذي يمنحهم بحساب الزمن الكوني ساعة أو ساعتين ثم يأخذهم إلى مصائرهم المفجعة **(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)!!**

وأنت تتناهبك المقارنات والأفكار ، قبالة هذا المنظر المؤثر الذي لا ينسى ... إذا بك تسمع صوتا يناديك:

– أنت هناك ... ما الذي جاء بك إلى هذا المكان المخصص لرجال الأعراف ؟

ارتبكت ، وتلجلجت الكلمات في فمك وأنت تحاول أن تحظى بدقائق أخرى تكمل بها شفاء غليلك من أولئك الذين يتخبطون تحت ... يتمرغون في نار جهنم ورمادها ... يعتصرهم الجوع والعطش ، ويتوسلون بأهل الجنة أن يفيضوا عليهم شيئا من الماء أو مما رزقهم الله ، دون أن يتلقوا أي رد على الإطلاق ...

وعاد صوت رجل الأعراف يأمرك بالنزول والعودة من حيث أتيت ... غادرت المكان وأنت تقول في نفسك: ما الذي أدراك ألا تتاح لك فرصة أخرى للإطلالة على مصائر البغاة والظالمين، مما ينزل بردا وسلاما على قلبك المثخن بالرغبة العاتية في الانتقام ؟!

الزحف الرهيب

فتح أبناء المدينة عيونهم يوما على السماء التي اعتادوها زرقاء صافية تبث سعادة وإشراقا وفرحا ، فتحوا أعينهم وما لبثوا أن راحوا يفركونها بأيديهم عل ما يرونه شيئا من الأذى أصاب رؤيتهم للأشياء ، ولكنهم ما لبثوا بعد لأي محاولاتهم تلك أن تبين لهم أنهم ليسوا واهمين ، وإن ما يرونه بأم أعينهم حقيقة واقعة لا ريب فيها ... أن السماء قد اختفت تماما ، من بدئها حتى منتهاها ، ومعها غابت الشمس ، ورحل الضياء ، وأن ثمة طبقة سميكة مما لم يشهدوا له مثيلا من قبل تغطيها ، بكثافة هائلة ... وصرخ صارخ: إنه الجراد !!

ها هو ذا إذن ما كنا نخشاه دائما حيث تنقض على سمائنا الدنيا فتحجبها ، آلاف وملايين من هذا الكائن المدمر الذي يعرف كيف يقضم الزرع الأخضر ويتركه حطاما ، والذي ما يلبث أن ينزل من عليائه إلى الأرض الواعدة بالعطاء فيسكت الوعد ، ويجعلها رمادا ، والذي يعرف بمناشيره الحادة كيف يفترس الزروع والثمار ويترك الناس يتضورون مسغبة وجوعا ...

ثمة عدد من طائرات الهليكوبتر تحلق في السماء الدنيا وهي ترش المبيدات علها تسوقه إلى التشتت بعد أن تكون قد قضت على العدد الكبير منه ، ولكن لا جدوى، إذ كيف يكون بمقدور عشر طائرات أو عشرين أن تكنس هذا الكائن الكثيف الذي يغطي السماء من أقصاها إلى أقصاها؟!

ما لبث الجراد أن راح يتساقط بكميات هائلة على أفنية دورنا ، وسطوحها ، ومساحاتها المكشوفة ، وهو يتلوى من الجوع بحثا عن شيء يأكله ، ثم ما يعتم أن يلفظ أنفاسه عبر أكوام لا حصر لها تنتشر هنا وهناك تثير القرف ، وتسد الشهية للطعام ، وتدفع الإنسان دفعا إلى أن يحلم بالفرار إلى مكان آخر ... مكان وضيء نظيف تغمره أشعة الشمس ، وتغطيه زرقة السماء، ويهب عليه نسيم منعش رقيق لا يحمل تلك الجثامين المقززة التي غزت سماء مدينتنا وما لبثت أن انقضّت على دورنا فلم تترك لنا شبرا واحدا للحركة يخلو من هذه الكائنات ...

وصرخ صارخ: يا أبناء المدينة ، شمروا عن ساعد الجد ولاحقوا الجراد الذي غزا دوركم ، اقتلوه، رشوا عليه المبيدات ... اكنسوه ... لا تبقوا له أثرا !!

ولكن ماذا تفعل هذه الصرخة؟ وكيف يتم كنس الجراد إذا كان ما يصفى منه لا يساوي عشر معشار ما يسقط منه من السماء دقيقة بدقيقة ولحظة بلحظة؟!

إنها اللعنة حلت بهذه المدينة فكيف السبيل؟

والسماء تزداد عتمة بانضمام ملايين أخرى قدمت إليها من أقطارها كافة ... يبدو أنها رحلة جماعية لأفواج الجراد بحثا عن الطعام ... وها هو ذا الطعام قبالتها ... الزرع والنباتات

والثمار التي سرعان ما ستتعرض للهجوم الكاسح ولسوف تغدو بعد قليل حطاما ، فماذا يتبقى لأهل المدينة ؟

وقال قائلهم: إنها اللعنة المزدوجة ، فها هو ذا الجراد يجتاح دورنا بما يقزّز النفوس وينقض على خزيننا من الطعام فيفترسه افتراسا ... فماذا يتبقى لنا ؟

وعلى حين غفلة ، وعبر فتحات النوافذ والأبواب ... عبر الثقوب والثغرات راحت تتدفق على الدور أفواج من الصراصير ، أفواج لا حصر لها ولا عد ، ومعها رشقات هائلة من الذباب والبعوض ما لبث أن أعقبها هجوم آخر شنته مجموعات لا حصر لها من السحالي ، أعقبها ما هو أدهى وأمر: سيل من الجرذان والفئران راح يتدفق هو الآخر إلى أفنية الدور وغرفها وسراديبها ...

وسرعان ما وجد أبناء المدينة أنفسهم عاجزين عن فعل أي شيء لمجابهة هذا الطوفان الحشري اللعين الذي راح يتدفق على الدور بصيغة أفواج تلو الأفواج ... وأنى للأهالي ، وهم قد أعلنوا عن عجزهم عن مجابهة طوفان الجراد اللعين أن يلاحقوا وجبات الصراصير والذباب والبعوض والسحالي والجرذان ... لقد فرض عليهم حصار قاس لم يفرض قبل على أحد من الناس ... وشلهم عن الحركة، عن ممارسة أي قدر من المقاومة لفتح ولو ثغرات ضيقة يستطيعون من خلالها مغادرة مواقعهم التي يبدو أنهم التصقوا بها خوفا وتقززا ...

لم يقف الأمر عند هذا الحد، وكأنه قد حكم على أبناء هذه المدينة بالإعدام ... إذا ما لبثت أفواج الأفاعي والعقارب أن راحت هي الأخرى تتدافع عبر الثغرات محاولة أن تجد لها مكانا في دور الناس ... في غرفهم وباحاتهم وسراديبهم ... فمن يقدر بعد ذلك على أن يحرك يدا أو قدما في مواجهة السم الزعاف ... إنه الموت لا محالة ... ومرة أخرى خيل للناس أن أمرا بالإعدام الجماعي قد أصدرته جهة ما ... جهة مجهولة ضد أبناء هذه المدينة المنكودة فكيف الخلاص ؟!

لم يعد قتل مجموعات من هذه الكتل الرهيبة من القوارض والحشرات يجدي نفعا ... ولم يعد رش ما تبقى في دور الناس من سموم ومبيدات يخفف شيئا من دفع هذا الهجوم الشرس الكاسح ، حيث راحت أفواج الداخلين من الخارج تتزايد حتى لم تكد تبقى شبرا من الأرض المكشوفة لا تلتم فيه العقارب والأفاعي والجرذان والسحالي والصراصير ... ناهيكم عن الجراد المنهمر من السماء الدنيا بغير حساب ...

يبدو أن المدينة مارست الكثير من الخطايا ... نادى أحدهم ... وها هي الآن تنال عقابها العادل ... ولكن لكل شيء نهاية، ولا بد من نهاية لهذا الطوفان الذي اكتسحنا فلم يترك لنا أي مجال على الإطلاق للحركة، للمقاومة، للخلاص ...

ونادى آخر بصوت متهدج لا يكاد يسمع : لقد قالها كتاب الله **(من يعمل سوء يجزى به)** وها نحن قد عملنا عبر سنوات وسنوات سوء كثيرا وكان لا بد من الحصاد ... وها نحن الآن نحصد ما زرعته أيدينا.

وترددت النداءات المرة تلو المرة، مؤكدة هذا الذي ذهب إليه الرجلان ... لم يعترض أحد ... لم يناقش أحد ... لم يتذمر أحد ... كأن ما يلاقونه الآن من هذا الزحف المدمر للحشرات إنما يجيء مصداقا لأفعالهم الخاطئة ... لسلوكهم الملتوي ... لغشهم وخداعهم ... لأنانيتهم ... لغيرتهم وحسدهم ... وللكراهية السوداء التي عششت في قلوبهم ضد بعضهم البعض ... لتهافتهم الذي جاوز كل حد على الكسب ... على تجميع أكداس المال ... على تخزين الذهب والفضة ... على تجاوز كل ما هو نظيف وضيء في هذا العالم ، من أجل وضع دينار أكثر في جيوبهم المنتفخة ... لكأنهم خلقوا كي لا يموتوا، فراحوا حتى وهم يدلفون إلى السبعين أو الثمانين من أعمارهم يكدحون بالحلال والحرام ... بالحق والباطل، من أجل تجميع المزيد من الكسب الحرام !!

هذه هي النتيجة المحتومة، صرخ أحد المحاصرين بالعقارب والأفاعي والجرذان والجراد المنهمر من السماء كمطر ينذر بالويل والثبور ... وقد طالما حذرناكم من هذا الذي درجتم عليه، اعتدتموه ، أصبح عندكم أمرا مستساغا ، كما لو أن أنكم تتناولون صنوفا طيبة من الطعام !! حذرناكم ، قلنا لكم أن تكفوا عن هذا اللهاث المحموم وراء إغراءات الحياة الدنيا ، وأن تؤوبوا إلى رشدكم لكي تتعاملوا بالميزان العادل المستقيم عبر أنشطتكم كافة ... ألم تقرأوا في كتاب الله ولو مرة واحدة في حياتكم هذه الآيات المنذرة بالويل والعقاب ؟ **(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ؟)** ...

تلك هي نقطة الارتكاز في سلوكهم الذي قاد هذه المدينة إلى التهلكة ... يبدو أنكم لا تؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، رغم أن العديد منكم يصلي ويصوم ... وبالتالي فإنكم لم تحسبوا أيما حساب لليوم الآخر الذي سيتمّ فيه الحساب العادل ... ولكن قبل يوم الحساب هذا هنالك حسابات إلهية أخرى تجيء كمقدمات لما سيشهده يوم الفصل ذاك ، وما تعانونه الآن لهو شيء من تلك المقبلات !!

وهم يستمعون هذا الكلام، كانوا يطأطئون رؤوسهم خجلا من أنفسهم وكأنهم يسترجعون كل ممارساتهم الملتوية عبر سني كدحهم الطويل والتي لم تتمخض في النهاية عن أي شيء على الإطلاق ...

فها هو زحف الجراد والعقارب والأفاعي والجرذان يأتي على الأخضر واليابس ، وكأنه صوت النفير الذي ينذر بمصائر كل المدن التي لم يعرف أهلوها كيف يسلكون المحجة البيضاء!!

هل استجاب أحد للنداء ؟!

ازداد اللغط في مدينتي حول هذا الزحف الهادئ ، ولكن المنذر بالويل ، والقطيعة ، للآلة التقنية التي راحت تمسك بخناق الإنسان ... تحاصره ... تمنعه من التحدث للآخرين ... تمزق روابطه مع الناس ... إنها تمضي إلى أبعد من ذلك فتدمر العلاقات الأسرية وتعزل الأبناء عن الآباء والأزواج عن زوجاتهم ...

ازداد اللغط وأخذ يتحول شيئا فشيئا إلى نوع من الاعتراض ... من الرفض ... من الوقوف بوجه هذا الطوفان الآلي الذي يكتسح الحياة والموجودات ، ويقف بالمرصاد للإنسان وهو يسعى إلى التواصل مع أخيه الإنسان.

ازداد اللغط ... وراحت مجموعة من الرجال: أساتذة جامعيون ، أطباء ، صيادلة ، مهندسون، تجار ... ومن ورائهم حشد من الشباب من طلبة المدارس والمعاهد والجامعات والعمال والفلاحين ... ومعهم حشود من الأدباء والفنانين يعربون عن سخطهم إزاء هذا الذي تشهده المدينة من الحصار المتزايد للآلة على الإنسان ...

وراح هذا السخط والكلام الهامس والاعتراض الصامت، يتحول شيئا فشيئا إلى ما يشبه الاتفاق على أن يحولوا همسهم إلى صوت عال ، واعتراضهم الصامت إلى صراخ من أجل أن يوقفوا هذا الزحف المدمر للآلة ، قبل أن يمضي إلى هدفه فيكتسح الأخضر واليابس ، ويهيمن على الساحة ويمسخ إنسانية الإنسان ...

وراحت الاتصالات تجري خفية بين هؤلاء الغاضبين من أجل توحيد صفوفهم وتمكينهم من مجابهة التحدي الآلي بالتنظيم الجماعي القادر على إيصال صوته إلى أعلى الجهات ... وسرعان ما تشكلت نويات من منظمات المجتمع المدني ، أخذت تعمل بهمة لا تعرف الكلل من أجل تجميع الطاقات البشرية المعترضة كافة في مواجهة الطوفان !!

وإذ أحست السلطات العليا التي فتحت الأبواب على مصاريعها للآلية أن تأخذ برقاب الناس وأن تسوقهم حيث تريد هي لا ما يريدون هم أو يشتهون ... وإذ أحست أن مصالحها الكبرى التي ارتبطت بتشجيع الزحف الآلي وفسح المجال أمامه كاملا للإمساك بالحياة ... إذ أحست بما يجري في الخفاء وبما راح يبرز للعيان بين الحين والحين ، من رغبة صامتة حينا ، مكشوفة حينا آخر لمجابهة هذا السرطان الآخذ بالانفساح والماضي إلى هدفه المدمر من خلال الإمساك بقيادة الإنسان ومؤسساته وتقاليده وأعرافه ... عقدت جملة من الاجتماعات لوقف الظاهرة التي تنبئ ، إذا قدر لها النجاح، بأن تدمر مصالح السلطات العليا ، وأن توقف كسبهم غير المشروع على حساب النبض الإنساني للحياة الذي درج عليه الناس منذ آلاف السنين ...

ولطالما أعرب عدد من الزعماء المحتجين عن أن موقفهم هذا لا ينطوي بالضرورة على دعوة لإلغاء الآلة وتقنياتها من الحياة ، لأن ذلك سيقود ولا ريب إلى تعطيل الحياة وكف المؤسسات عن نشاطها المعهود ، ولكنه يعني وقف ظاهرة الاحتكار الآلي لكل شرايين الحياة ، وتحجيمه في دوائره المعقولة ، وترك المساحات الأوسع للنشاط البشري، والعلاقات الإنسانية ، أن تأخذ مجراها وإلا فإن الحياة تتعرض لواحدة من أشد عمليات المسخ في التاريخ ...

وانظروا ... قال قائلهم ، كيف تحولت الجلسات العائلية ، على سبيل المثال ، إلى قطيعة كاملة بين الآباء وأبنائهم ، وبين الأزواج وزوجاتهم ... كل واحد ينكب الساعات الطوال على جهازه النقال ذي التقنيات المتقدمة ، وقد أدار ظهره ووجهه وجسده بالكلية ، للآخرين ، فلم يعد يتواصل معهم بكلمة أو حديث ... وكيف تحولت هذه الجلسات عن مسارها المعروف لمئات السنين وألوفها ، حيث كانت الأسرة الواحدة تجلس الساعات الطوال بألفة ومحبة ، تتبادل الأحاديث ، وتشكي همومها ، وتعرض مشاكلها وتتعاون من أجل إيجاد الحلول الملائمة لها ...

وانظروا، قال قائل آخر، كيف راحت الشاشة الصغيرة تفترس أوقات الصغار والكبار الساعات الطوال، فلا تكاد تترك لهم أيما فرصة زمنية لمواصلة دراستهم ، والاهتمام بشؤونهم اليومية، والسعي لحل مشاكلهم المتجددة ... أو الانصراف للمطالعة الجادة في هذا الكتاب أو ذاك ... صحيح أنها تقدم شيئا من الثقافة ، لكنها ثقافة متضحلة ، أشبه بالسندويجات التي لا تصنع مفكرا ولا باحثا ولا أديبا ولا مبدعا ...

ثم ما هذا الذي تعرضه الشاشة الصغيرة ؟ إنه الإعلان الذي يعقبه إعلان آخر ... ثم ثالث ... ثم رابع ... إنها عملية غسيل مخ ترغم الناس على الإقبال لشراء هذا المعلن عنه بإلحاح حتى ولو لم يكونوا بحاجة إليه ، فتبتز نقودهم من حيث لا يشعرون ...

وفوق هذا وذاك، تلك القنوات التي انصرفت بالكلية للترويج للعهر والفاحشة والمجون ... والتي قد تدمر في دقيقة واحدة ما سهر الآباء والمعلمون على بنائه السنوات الطوال ...

وقال ثالث: هذا إلى ما يسببه الالتصاق المتواصل بالشاشة الصغيرة من أذى قد يصل حد اختراق القدرات العقلية والبصرية وإصابتها بالأذى ...

ثم ، قال آخر، إذا وسعنا المنظور وغادرنا الحصار الذي تمارسه التقنية داخل الدور، وخرجنا إلى الحياة على اتساعها ، فإننا سنلحظ بأم أعيننا كيف أصبحت الآلة تهيمن شيئا فشيئا على معظم مساحات الحياة وأنشطتها المعتادة وتسحب يد الإنسان من أن تشارك في العمل أو البناء ... حتى إننا أصبحنا نرى بأم أعيننا كيف استدعيت الآلة إلى بيوت الناس لكي تمارس التنظيف والغسل والطبخ وسائر الخدمات ، وتقود ربات البيوت إلى الاستسلام للكسل ، ومع الكسل إحساس قاس بثقل الزمن ، والرتابة ، والملل ، الذي يجثم على أنفاس الناس الذين لم يعد يطلب منهم القيام بأي شيء ...

هنالك ما هو أمر من هذا كله، وأدهى، وأدعى إلى التحرك السريع على الأقل من أجل حماية ما تبقى للإنسان من مساحات العمل والجهد والمشاركة في بناء الحياة واستمراريتها ... إنه الزحف الشمولي للآلة التي يراد أن يكون لها عقل يسيرها ويقول لها: افعلي هذا ولا تفعلي ذاك ... تحركي من هنا وتوقفي هناك ... امسكي بقبضتك الحديدية على هذا الشقي أو ذاك ، لا لشيء إلا لأنه وقف قبالة رغبتك العاتية في حكم الحياة ... كل صغيرة وكبيرة عبر مجراها المتمخض الذي يراد أن تحكم الآلة قبضتها عليه ...

كانت هذه النقدات تدور بين زعماء المعارضة في منتدياتهم ودورهم ودوائرهم ، وسرعان ما تجد طريقها صوب الشارع حيث يتدفق الناس وهم يحسون أكثر فأكثر بتضييق الخناق عليهم، وبفقدان حياتهم لطعمها ومذاقها وعذوبتها ... ولطالما تساءلوا: ما الذي قدمته لنا التكنولوجيا الآلية من فرح ، أو سعادة ، أو حتى صحة وعافية ، كالتي عهدناها في الزمن الماضي ؟!

لقد كان الناس يومها أكثر فرحا ، وسعادة ، وأشد صحة وعافية ، وأعمق تواصلا اجتماعيا، من هذا الذي تشهده الحياة بعد غزو التكنولوجيا ... ضاع الفرح ... غابت السعادة ... تحول الناس إلى أشباح يملؤها البؤس والعجز والمرض ... كانوا يأتون لأداء الصلوات في هذا الجامع أو ذاك فلا يكادون يجدوا كرسيا واحدا يجلس عليه أحد المصلين بسبب من متاعبه مع المفاصل والفقرات ... واليوم نجد خطوطا من الكراسي في كل مسجد يجلس عليها أولئك الذين أصابتهم الحياة الحديثة بما لم يقدروا معه على الصلاة واقفين ...

كنا نشتري اللحم والفاكهة والخضار يوما بيوم ، لكي ما نلبث أن نلتهمها بشهية وهي بعد طازجة تنطوي على فوائدها الغذائية كافة ... واليوم نخزن هذه المشتريات في آليات التجميد لأسابيع وربما الأشهر الطوال ، فتفقد طعمها وفائدتها ، وتلحق بالإنسان من الأمراض ما يجعل عيادات الأطباء تغص يوميا بالمراجعين وهم يشتكون من آلام المعدة والقولون والكبد والبنكرياس ... ومن الضغط الذي أصبح زميلا يومياً لمعظم الناس ...

كان آباؤنا ينطلقون صباح كل يوم إلى أسواقهم ودوائرهم ، والطلبة إلى مدارسهم ومعاهدهم، مشيا ويرجعون إلى دورهم مشيا ، فيزدادون صحة وعافية ... واليوم لا يكاد أحد يمضي إلى هدفه ، حتى لو كان قريبا ، إلا وقد امتطى هذه السيارة أو ذلك الباص ، فما يلبث السقام أن يحيق بهم بسبب قلة الحركة التي كانت يوما جزء أساسيا من حياتهم اليومية ...

كانت هذه الأحاديث تدور بين زعماء المعارضة وقواعدها من الجماهير العريضة ، وكانت الشرطة السرية والمخبرون ينقلون هذا الذي يدور بحذافيره إلى السلطات العليا فتتحفز هذه للرد وتطويق الظاهرة قبل أن تستفحل وتلغي هذا النموّ التكنولوجي الذي يدر ضرعه في جيوب هؤلاء ...

بدأت عملها بتوجس وصمت، فكانت تستل زعماء المعارضة من بيوتهم استلالا وتودعهم السجون ، وإذ لم تأت هذه الخطوة بالنتائج المطلوبة، وراحت المعارضة تزداد انتشارا ، أصدرت السلطات العليا بيانا تندد فيه بالظاهرة وأنها سوف تضرب بيد من حديد كل من يقف وراءها ... وما لبثت السجون أن راحت تتلقى المزيد من المعتقلين حتى غصت بهم ، فمضت لكي تبني المزيد من المعتقلات والسجون ....

غير أن حكيما واحدا في السلطة ، واحدا فقط ، وقف معترضا هذا الذي يمارسه زبانيتها ويتقدم إليهم بالحل المطلوب ... أن السجون ستزيد المعترضين سعارا ، ولن توقف المعارضة بل ستمر مساحتها إلى أبعد الآفاق فماذا لو استدعت عددا من قادتها إلى حوار سلمي قد يصلون من خلاله إلى تجاوز المحنة التي توشك أن تعصف بالمدينة ، وقد يضع الطرفان أيديهم على حل وسط باستمرار الاعتماد على التقنيات الحديثة ، ولكن بوعد قاطع من السلطات العليا بتحجيم هذا الاعتماد في حدوده المعقولة قبل أن يمضي إلى أهدافه فيكتسح الحياة ...

ترى هل استجاب أحد لنداء هذا الحكيم؟!

الجبار !!

اجتمع رئيس العرفاء صموئيل نويا بوحدته التي لا يتجاوز عدد أفرادها من العرفاء والجنود الأربعين شخصا ، ودون مقدمات قال: اليوم فجرا سيبدأ تنفيذ الانقلاب على رئيس الجمهورية ، وإن هي إلا ساعة أو ساعتين ويكون كل شيء قد انتهى !!

أبدى أحد العرفاء شيئا من القلق بخصوص احتمالات النجاح ، مؤكدا على ضرورة الحذر من رد فعل الدول الأجنبية وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية!!

علت وجه صموئيل ابتسامة عريضة وقال مطمئنا عريفه : بالنسبة لهذه المسألة عليكم جميعا أن تطمئنوا وأن تضعوا في بطونكم بطيخا صيفيا ... ثم أردف ، وهو يمتص بشغف رشقة دخان من سيكارته (الجروت) : إنها هي التي أوعزت لي القيام بالانقلاب على رئيس الجمهورية الذي يبدو أنه أزعجها بإلحاحه على إعادة تسعير صادرات النفط التي تحتكرها جملة من الشركات الأمريكية ، وربما ، من يدري ؟ فقد لوح باحتمالات التأميم ...

وقال عريف آخر: ولكن كيف سيتاح لنا ونحن لا نتجاوز الأربعين عددا السيطرة على كل مرافق الدولة ، تلك التي تحتاج إلى المئات والألوف من الانقلابيين ...

أجاب صموئيل: اطمئن ، فبمجرد السيطرة على مقر الإذاعة بدبابة واحدة وأربعة جنود وعريف واحد ، سيكون كل شيء قد وضع في جيوبنا !!

تساءل العريف: ورئيس الجمهورية؟

قال صموئيل بثقة بالغة: سوف نقتله في منامه ! المهم أن يلتزم كل واحد منكم بما عهد إليه من مهمات، ودعوا المسائل الأخرى علي ، فأنا سأعرف كيف سأتعامل مع المصاعب والتحديات !!

فجرا ، أعلن عبر أجهزة الراديو والتلفزيون عن نجاح محاولة انقلابية قادها رئيس العرفاء صموئيل نويا ، حيث أطيح بالرئيس السابق الذي وجد مقتولا ، وأعلن صموئيل نويا رئيسا للجمهورية !

يبدو أن جيوبا لمقاومة المحاولة الانقلابية قد استمرت على القتال ، لكنها بعد مرور ساعة أو ساعتين ، ما لبثت أن استسلمت ، بينما راحت أجهزة الإذاعة والتلفزيون تذيع جملة من البيانات التي تؤكد نجاح المحاولة واستقرار الأمور بيد الرئيس الجديد ...

– ولكن ... تساءل العشرات والمئات والألوف من المواطنين كيف سيتاح لرئيس عرفاء أن يصبح رئيسا للجمهورية ؟

وما لبث العديد منهم أن أدركوا أبعاد اللعبة ، فهي ليست بالأمر الجديد في الساحة الأفريقية ، إنها أمريكا التي استفزها الرئيس السابق فأصبحت على استعداد لتنصيب جندي ، وليس رئيسا للعرفاء ، بدلا منه !!

– ومع ذلك ... قال آخرون: كيف يتسنى لرئيس عرفاء شبه أمي أن يحكم بلدا من سبعة ملايين أو ثمانية ؟

– أطمئن ... أجاب العارفون ببواطن الأمور ، فإنه سيجد من المستشارين والخبراء الأمريكيين أنفسهم من يعينه على القيام بمهمته ...

– عجيب !!

ليس في الأمر أية غرابة ، وأنظر إلى ما شهدته أمريكا اللاتينية ، فضلا عن أفريقيا وربما آسيا، كيف أصبحت الانقلابات اليومية لعبة يتسلى بها الأمريكان ، فيخلعون بها من يشاءون ويأتون بمن يشاءون ...

ومضت الأيام الأولى على الانقلاب ، والشعب الأفريقي المسكين يتذرع بالصمت ، وبانتظار اللحظة التي سيعلن فيها عن فشل محاولة يقودها رئيس عرفاء ... ولكن ظنهم سرعان ما خاب ، وإذا بالرئيس الجديد يعلن عن جملة من الإجراءات الحادة التي سعى من ورائها إلى تقييد إرادة الجماهير وشلهم عن التحرك ... فأعلنت الأحكام العرفية ، وحل البرلمان ، وجمد الدستور ... وانتشرت الدبابات والمدرعات في شوارع العاصمة ، تنذر بالويل والثبور ضد كل من تحدثه نفسه بالقيام بعمل مضاد ...

وسرعان ما كشف رئيس العرفاء ، رئيس الجمهورية الجديد ، عن وجهه: أنه سيحكم البلاد بقبضة من حديد ، ولن يسمح لأحد أن يتحرك أو يعمل إلا في ضوء اللوائح الجديدة التي راحت تتدفق على الناس عبر وسائل الإذاعة والتلفزيون والصحافة وتلزمهم إلزاما بالرضا والخنوع لمطالب العهد الجديد ، وإلا فإن السكين الحادة ستدوم فوق رؤوسهم حتى ولو اقتضى ذلك التضحية بالمئات والألوف ...

– السيد الرئيس سيلقي مساء اليوم بيانا هاما، فيرجى الانتباه ...

وراح المواطنون وقد التصقوا بأجهزتهم يترقبون ما الذي سيقوله رئيس العرفاء !! فإذا به بعد أن تعمد تأخير بيانه الساعات الطوال، يظهر غلى الشاشة لكي يقول: أن ثمة اتفاقا عادلا وقع صبيحة هذا اليوم ، بين حكومتنا وبين ممثلي شركات النفط ، ولسوف يكون مردوده المالي كبيرا عليكم أيها المواطنون ... وما هذه سوى خطوة أولى على الطريق الطويل الذي ما آليت أن أقطعه حماية لمصالحكم ...

في اليوم التالي تبين للمواطنين ، وهم يتابعون بنود الاتفاق ، أن السيد الرئيس قد أعطى شركات النفط الحق الكامل بالتنقيب عنه في طول البلاد وعرضها ... مقابل حفنات ضئيلة من

الدولارات ... لقد باع رئيس العرفاء البلد للغرباء ... أعطاه لقمة سائغة للمستعمرين ، فتجاوز بخطوته هذه كل التحفظات التي طرحها الرئيس السابق بمواجهة إلحاح ممثلي الشركات الأمريكية !!

– إنها تمثيلية قذرة يمارسها رئيس العرفاء ، ولهذا جاءوا به لكي ينصبوه رئيسا للجمهورية ... أسمعتم عن رئيس للعرفاء يصبح رئيسا للجمهورية ؟!

في اليوم التالي اختفى هذا المواطن ، وما لبث رأسه أن وضع عند باب داره فجرا ... وراحت وقائع قطع الرؤوس وإرسالها إلى أهليها فجر كل يوم أن غدت تقليدا سائدا في طول البلاد وعرضها ... ليس ثمة من يتلفظ بكلمة إدانة لهذا الذي يمارسه الرئيس ، إلا ووجد رأسه مقطوعا عند حافة داره !!

ويوما أعلن عن عقد اجتماع عام برئاسة السيد الرئيس يحضره كبار المسؤولين من قادة الجيش ورجال الأمن والمخابرات والشرطة والإدارة المدنية ... تعمد الرئيس – كعادته – في أن يتأخر عن الحضور لعدة ساعات ، حتى أصاب المدعوين الملل ، وراحوا يتململون في مقاعدهم دون أن ينطقوا بكلمة تذمر واحدة ... وكيف ؟ وهم يعرفون مسبقا أنها ستقودهم إلى البوار ؟ كانت قد رفعت إليه تقارير سرية تشير إلى احتمال قيام مؤامرة للإطاحة به !!

بعد أربع ساعات من الترقب والانتظار ، قدم موكب السيد الرئيس ، ودخل الرجل مسرعا، وجلس على مقعده قبالتهم تماما ، دون أن يكلف نفسه عناء الترحيب بهم ، وراح يحدق فيهم بعيني صقر لا تعرف الرحمة ، واحدا واحدا ، وكلما تلقى أحدهم نظرات الرئيس الحادة أنكمش في مقعده وأدرك أنه قد يتلقى العقاب ... وما لبث أن قال: تقديرا لجهودكم المخلصة في خدمة جمهوريتكم الفتية ، فأنتم اليوم جميعا مدعوون لحفلة غداء عامر في حدائق القصر الجمهوري ، ثم نهض قائما وغادر القاعة وتركهم يتساءلون عن هذا الذي رأته أعينهم ، ومع ذلك فقد وجدوا أنفسهم ينساقون كقطيع من الأغنام وراء زبانية الرئيس الذين قادوهم إلى حيث صفت المناضد والكراسي في حدائق القصر الجمهوري، ووضعت عليها عشرات الصواني والأطباق الكبيرة الحافلة بقطع الشواء والرز المتبل ... وسرعان ما قدم السيد الرئيس لكي يقول لهم أن بمقدورهم أن يبدأوا بالتهام الطعام ... لكنهم جميعا ما إن وضعوا اللقمة الأولى في أفواههم حتى أصابهم الغثيان ولفظوها بسرعة وهم يعربون عن دهشتهم لطعمها الغريب المنفر هذا !!

دار عليهم الرئيس الجبار وبيده عصا المارشالية وراح يضرب بعنف على رؤوسهم ويرغمهم على تناول الطعام قائلا لهم: أتدرون ما هذا ؟ إنها رؤوس وأذرع الخونة الذين راحوا ينشرون الشائعات ويشككون بمصداقية الاتفاق النفطي مع الشركات ... كلوا أيها الخنازير ، إنه لحم رفاقكم الذين سبقوكم إلى التبرع برؤوسهم وأذرعهم لهذه الدعوة الكريمة ... ومن يدري فلعل الدور يأتي عليكم أيضا ... ولسوف ترون !

غادر المكان وتركهم في ذهول لا يعرفون ماذا يفعلون ؟ هل ينفذون أمره الصارم بتناول لحم رفاقهم القاسي أم ينهضوا أو يغادروا المكان وليكن ما يكون ...

وبمرور الأيام راح جبروت رئيس العرفاء صموئيل نويا يزداد تنمرا وطغيانا وأخذ يتفنن في أنواع العقاب التي ينزلها برؤوس من يشك ، مجرد شك ، بولائه له !

وسرعان ما استطاع بجبروته وطغيانه هذا أن يكمم الأفواه وأن يحول شعبه بكامله إلى قطيع من الأغنام لا تعرف شيئا سوى الطعام والسفاد والنوم ، وهو مطمئن أشد الاطمئنان إلى أن هناك من يحرسه ، ويسهر على حمايته، ويمد في بقائه في هذا المنصب الخطير ، من رجال المخابرات الأمريكية وحراس المصالح النفطية ، حتى أنه يوما قرر أن يتنازل عن جزء من النسبة المعطاة من أرباح عائدات النفط للشركات إياها ، الأمر الذي وجه ضربة قاسية لمردود الدخل القومي ودفع جماهير الناس إلى مزيد من الضنك والفقر والتعاسة ...

ولكن من يقدر على الاعتراض ؟ من يستطيع أن ينبس بكلمة واحدة ... بهمسة خفية ، يدين بها هذا الذي يجري ؟ لا أحد ... لا أحد ... لا أحد على الإطلاق ...

ومضى عشرون عاما ورئيس العرفاء يتربع في منصبه رئيسا للجمهورية ... مضى عشرون عاما، والرئيس يبتز أموال الدولة لمصلحته الخاصة ، حيث أنشأ جملة من المصالح والشركات ، بالمال العام ، ولكن مردودها لن يكون إلا لجيبه الخاص ... وسرعان ما نزع ملابسه العسكرية وراح يتفنن في ارتداء أرقى الملابس والأربطة التي تصنع له خصيصا في باريس وروما ...

مضى عشرون عاما وهو يستقدم أرقى الوجبات الشهية من مطاعم باريس الشهيرة التي يؤتى له بها في طائرات خاصة ، ومعها أرقى أنواع الخمور والمغيبات ... وأجمل الفتيات والعاهرات ...

مضى عشرون عاما وجبروته يزداد طغيانا وعنفا ... ما من صغيرة ولا كبيرة إلا وهي تصله ، يوما بيوم ودقيقة بدقيقة، فيسارع في إطفاء الفتنة قبل أن يستفحل أوارها ويتحول لهبها الهادئ إلى حريق كبير قد يأتي على الأخضر واليابس ... والحل سهل بسيط ، والوقاية خير من العلاج ... قطع رؤوس الفتنة وتركها مرمية على أعتاب الدور !!

حتى ليقال أنه تجاوز هذا التقليد الذي يثير القرف والاشمئزاز ، واستبدله بأحواض التيزاب التي تلتهم الجثث وتغيبها عن الأنظار ...

عشرون عاما ورئيس العرفاء هذا يتحول بقدرة قادر إلى قائد جبار يسحق بعنف وضراوة ... ودونما أي قدر ... أي قدر على الإطلاق من الشفقة والرحمة والإنسانية ، كل من يشم فيه روائح الاعتراض والتذمر ، وربما الغدر والانتقام ...

حتى إذا طفح الكيل ، وجاوز السيل الزبى ، آن لأولئك السفلة الذين زرعوه في هذه الأرض رئيسا للجمهورية ، أن يتخلوا عنه ، بعد أن استنزفوه حتى النخاع ، وأن يستبدلوه – كعادتهم – برئيس جديد عله يستطيع أن يعيد ثقة جماهير الناس بما يريده البيت الأبيض وذلك بالإعلان عن جملة من الإصلاحات الشكلية ، يمارسون بواسطتها ، تخدير الشعب ريثما يحكموا قبضتهم من جديد على مقدرات البلد ، ويمتصوا ضرعه ، من خلال انقلاب جديد، قد يأتي هذه المرة إلى رئاسة الجمهورية بعريف ، وربما بجندي طموح !!

تم بحمد الله ...

الفهرست

الموضوع	الصفحة
تقديم	٣
المطر الأسود	٥
أود لو أن الدنيا كلها بيدي فأطعمها الجياع	٨
الويل	١١
من أين يبدأ التفكير ؟	١٤
الجريمة والعقاب	١٨
لقاء الراحلين	٢٢
ها قد عثرت عليك	٢٨
العملاقة	٣٤
لقطات قصصية من زمن الطفولة السعيد	٣٩
ايجوغدوي	٥٤
الكلمة المضيئة	٥٨
لعبة الفنجان	٦٢
حتى اللحظة الأخيرة	٦٦
الالفة الميتافيزيقية !!	٧٠
المنجل السحري	٧٤
المستحيل	٧٨
الأعراف	٨١
الزحف الرهيب	٨٦
هل استجاب أحد للنداء ؟	٩٠
الجبار	٩٤
الفهرست	٩٩